

مجموعة قصصية

تأليف

حفنى مصطفى حفنى



الحلم الضائع

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

رقم الإيداع ١٩٩٥/١٠٣٥٦
I.S.B.N.
977-279-035-1

التنفيـــذ :
مطابع سجل العرب
٩ ش عمـاد الدين - القـاهرة

التـــوزيع :
دار الأمين
١٠ ش بستان الدكة - القاهرة
ت : ٩٣٢٧٠٦

إهـــــداء

* إلى الأب والمعلم ، إلى والـدى الحبيب الـذى التحفـه ثـرى مصر الحبيبة ففقدناه إلى حين ، وما زلنا على فراقه لمحزونون ...

* إلى نور العيون وبهائها إلى أمى الحبيبة التى علمتنى حروف الهجاء ثم دفعتنى دفعًـا صـوب النجـاح وهى قـريـرة العين ، مطمئنـة الفـؤاد ...

* إلى حُشـاشة القلب ، ومصدر الحب والسرور ، إلى ولدى رأفت ، وابنتى إنجى اللـذان لا أرى الراحـة إلا فى وجودهما بجـوارى ، حتى أضحى أزيزهما يملأ كل حياتى ...

* إلى شريكـة الـدرب زوجتـى العـزيـزة التى تقـاسمنـى أفـراحى وأحزانى ...

* إلى القراء الأعزاء أرفع هذا الكتاب ...

المؤلـــف



المقدمة

الرجال والنساء هم الحياة ، لا تستقيم الدنيا إلا بوجود هذين العنصرين .. ومن هذا المنطلق نستطيع القول : بأن الرجال هم ماء الحياة ، والنساء هن الأرض ... فلا الأرض تستطيع أن تستغنى طرفة عين عن الماء ، ولا الماء يستطيع أن يستغنى عن الأرض قيد أُنملة إذا أريد للأرض أن لا تكون موات ، وإذا أريد للماء صنع الحياة ...

وبالرغم من ذلك نرى ونسمع أن ثَمّ شقاقًا قد دب بين الرجل والمرأة من أجل إنجاب الذكور أو الإناث ، أو من أجل المال زاد أو نقص ، وقد يكون الخلاف سطحيًا ينتفش كالفقاعة فوق سطح الماء وسُرعان ما تختفى ، وقد يصل الصدام والشقاق حدته أو ذروته بين الزوجين ، آنئذ تنهار المودة والرحمة التى جمعتهما ، وهذا الانهيار ولا شك يُؤثر بالسلب على كيان ومستقبل الأبناء عندما يفقدون أعيُن الرقباء ، فإذا بالأبناء ينظرون فيمّن حولهم فلا يجدون من يُسدى إليهم النصيحة فيولون الإدبار وهم لا يدرون إلى أين يذهبون ، فقد تصور لهم عقولهم ساعتئذ أن يولوا وجوههم شطر البيداء ، فإذا بالبيداء تغتالهم فى حين غفلةٍ منهم ، وقد يتوجهون صوب اليم فيبتلعهم اليم فى جوفه ، آنئذ يصرخ الآباء والأمهات فيقولون : « يالله غدر اليم ، ويالله قسوة البيداء ، وهم لا يعلمون أن الغدر والقساوة نابعة من قلوبهم هم عندما رضخوا للوهم ،

وتناسوا الحقيقة ، ورضوا بتفـاهات الأمانى ، وإذا بهم يضيّعون الأجيال ، الجيل تلو الآخر ...

والناظـر إلى الحياة التى تجمع بين الرجل والمرأة ، يجدهـا لا تسير البتة على وتيرة واحـدة وهـذا ولا مـراء أمـر طبيعى لا يثير الـدهشـة .. ولكن الغـريب فى هـذا الأمـر أن نجـد المرأة تجهل حقـوق الـرجل وتضرب بها عَـرض الحـائط ، أو يجهــل الـرجل حقـوق المرأة ويلقى بها فى غيابـات الجُب ، عنـدمــا يتجبر ويتكبر إحـداهما أو كـلاهما مـن أجل السيـادة والزعامة على الطرف الآخر ، لما يغفل كل منهما أن الحياة الزوجية مشاركة بينهما ، وأنها لن تستـوى إلا عندمـا يسود الوفـاق والانسجام بين الـرجل والمــرأة ...

فهـذه سيدة تـرى ذاتها ، وربما تـرى سعـادتها وضالتهـا المنشـودة فى استعبادها للرجل لما تقف حائلاً بينه وبين السعادة ، فإذا بها تحول حياته عذاب دائم عندما تفقده احترامه لنفسه ، واحترام الآخرين له ..

وهـذا رجل عشش الشيطان فى تـلافيف رأسه فخيل لـه شيطانـه أن المرأة لم تُخلق إلا لمتعة الرجل فقط ، وأنه عندما أقدم على الارتباط بها كان ينظر إليهـا على أنها أجيرة فى بيته ليس لها مـن الحقوق إلا ما يتعطـف به عليها وقتما يشاء ، ولو أنه كلف خاطره وبحث فى الدستور الذى لا يأتى بالباطل (القـرآن الكريم) لأنه من عند الله لعـرف من فوره مقدار المرأة عند الله والرسول ﷺ ...

والـلافت للنظـر أن نجد الـرجل كثير الشكوى من المرأة ، والمرأة كثيرة الشكوى مـن الرجل رغم هـذا الحب الذى جمع بينهما .. ولـو أن أحدهما فقـد الآخر لبضعـة شهـور لخرج هـائمًا على وجهه فى الفيـافى يسأل عنـه الغادى والـرائح وقد اعتلى وجهه الحزن وهـو كظيم ، ولعلنى أذكر بعض السطور التى جاءت فى الأسطـورة الهندية القديمة ؛ لـذا وجدت أنه من الضرورة بمكان أن أذكر بعضًا منهـا لعلها تبين إلى أى مدى يُحب الرجل المرأة ، وتُحب المرأة الرجل ...

تقول الأسطورة فى بعض أجزاءٍ منهـا : « إنه لما وهب الله المرأة للرجل فرح بها حين شاهدها ، واجتلى محاسنها ، وسرُعـان ما أخذ بيديها ، وسار بها إلى جنته ...

ولم يمض على وجـودهـا معـه إلا شهـر وبضع شهـر حتى أسرع إلى خالقـه وناجاه بقـوله : إلهى إن هذه المخلـوقة التى وهبتها لى قـد أحالت حياتى جحيمًا ، والنعيم الذى كنت فيـه مقيمًا قبل أن ألقاها شقاء ، فهى ثـرثـارة لا يكل لسـانها عن الكــلام ، وإذا كنت متعبًا فنمت أيقظتنى لأؤنسها ، مـدعيّة أنها مؤرقة ، وإذا خـاصمنى النوم وأَرِقْتُ أسرعت هى إلى النــوم وآذتنى بشخيرهـا وغطيطهـا .. آنئـذ قـال لـه الإلـه : هـاتها وانصرف .. وانصرف الرجل إلى وحدته باسمًا ...

ولم يمض على ذلك غير شهر أو يزيد حتى جـاء الرجل إلى ربه ودعاه بقوله : إلهى قد رددت إليك هذه المخلوقة التى وهبتها لى ، حتى ترانى قد أصبحت أشعـر بـالـوحـدة ، ولم أكن أشعـر بها قبل اجتمـاعى بها ،

وأضحت حياتي بعد فراقها فارغة ، فلقد افتقدت أُنسها ، وحديثها الحلو الممتع ، ودعاباتها المرحة ، وعبثها المُسلي ، وصوتها العذب الرخيم ... إلخ .. فهل رددتها إليّ يا إلهي ثانيةً ... فقال الإله : أجل خذها فهي لك ...

وبعد ثلاثة أيام لا تزيد ساعة جاء الرجل إلى الرب وعلامات الضيق والاضطراب باديةً على وجهه وقال: « إني لفي حيرة شديدة ، فلقد حاولت أن أسبر غور هذه المخلوقة فلم أُوفق ، إنها سر مغلق لم أستطع كشفه ، فهّلا أخذتها يا إلهي ؟ .. فقال الإله : أغرب عني أيها المخلوق الجحود ، إنك لا تدري ما تريد ، وما لا تريد ، فلما قال الرجل متوسلاً : إنني لا أستطيع العيش معها .. قال له الإله : « إنك لا تستطيع العيش بدونها » .. فتولى الرجل يائسًا وهو كظيم ...

أما المرأة لما عاشت مع الرجل تبعته صابرة على جفاء طبعه ، متفانية عن إساءته المتعمدة إليها ، متجاوزة عن تهوينه من شأنها بسبب وبغير سبب ... ولما نفذ معين صبرها ، سارعت هي الأخرى إلى ربها باكيةً تقول : ربي إن هذا المخلوق الذي وهبتني له قد ضقتُ ذرعًا بأنانيته ، وصلفه وقسوته . إنه لم يُحسن عشرتي إلا يومًا واحدًا ، ثم بدأ يتنكر لي ولا يُصغي إليّ إذا تحدثت إليه ، وإذا أشرت عليه برأي خطّأه ، وإذا هفوت هفوة أقام الدنيا وأقعدها ... إلخ .. إنني لا أريد العيش معه ...

ولم يمر على انفصال المرأة عن الرجل غير سبعة أيام حتى جاءت إلى ربها تسعى ، وقالت له وهي تكفكف الدمع : إلهي إنني ندمت بزوجي ،

وحقَّرتُ من شأنه ، فسردت على مسامعك مساوئه وعيوبه ، وأغفلت محاسنه وفضائله ، لقد ذكرت مُرهُ ، وأنسانى الشيطان أن أذكر حلوه ، لقد كشفت لى الأيام التى أُحيلت بينى وبينه أننى لا أستطيع العيش بدونه ، لقد ظللت طوال هذه المدة خائفة أترقب ، إذا تحرك غصن ذعرت ، وإذا عوى ذئب نهضت الرعدة فى مفاصلى وهرولت إلى كوخى ، وأوصدت بابه ، لقد كنتُ معه أجوب الغابة أجمع الجذور والثمار غير هيابة لعلمى أنه من ورائى يدافع عنى ، لا .. لا ، أنا لا أقوى على فراقه ، لقد كان جارى وأمانى ومعقلى ...

التفت الإله إلى المرأة قائلاً : « اذهبى إليه ، هو لباس لك ، وأنت لباس له ، كل منكما يُسعد صاحبه ويُشقيه ، ويتأبى عليه وهو راغب فيه ، ويفزع إليه إذا حز به أمر ، ويستند عليه إذا أثقله هَمْ ، ويتخذ كل منكما الآخر ستارًا يصد عنه خائنة الأعين ، ومرآة يرى فيها حسناته وسيئاته ، ومحاسنه وعيوبه ...

عزيزى القارىء .. بين يديك الآن كتابى هذا الذى يضم عدة من القصص التى تتناول سلبيات البشر وإيجابياتهم ، وعلينا أن نرحب بالإيجابيات ونتخذها سراجًا لنا ، أما السلبيات فعلينا أن نطرحها أرضًا ، أو نلقى بها فى غيابات الجب ، آنئذ يَعُم الحب والاحترام بيننا نحن بنى البشر رجالاً ونساءً ...

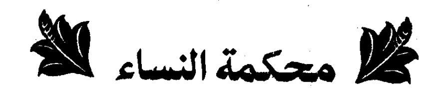
وبحسبى أننى لم أدخر من الجهد والوسع لا القليل ولا الكثير حتى يخرج هذا الكتاب إلى حيز النور ، فإن أخطأت أخى القارىء فى موقف

ما ، فحسبى أنى إنسان ، و إن أصبت فى عدة مواقف ، فحسبى أننى ترويت وتحريت الدقة قبل الكتابة لك لعلمى بقول المولى سبحانه وتعالى فى سورة الرعد الآية (١٧) :

﴿ فأما الزَّبَدُ فيذهب جُفَاءً * وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ فى الأرضِ * كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ ﴾ «صدق الله العظيم» .

مع تحياتى

المؤلف/ **حفنى مصطفى حفنى**



محكمة النساء

كانت الشمس إذ ذاك تتوارى وراء الشفق ، وكأنها ملت متاعب البشر وكرهت ظلمهم .. وسرعان ما قَدُم الليل ناشرًا أخيلته ، وإذا بالنجوم تظهر فى الفضاء الرحيب المظلم ظهور الأمل بالخلود .. وإذا بالحشود الغفيرة تهرع من دورها هربًا من الحرور وارتفاع نسبة الرطوبة ، وأنت إذ تطالع هذا المشهد تقول من توك : « إنهم ذاهبون للمثول أمام أيدى الله سبحانه وتعالى ، وليس هربًا من الحر فى الحدائق والمتنزهات حيث الطبيعة والهواء العليل ...

كان من بين الناس الذين يغذون[1] فى السير شابًا تخاله[2] منذ اللحظة الأولى عفريتًا قد انبثق من العدم ، وما هو بعفريت ولكنه إنسان أرادت الشدائد أن تميل به يُمنةً ويسرة كالقشة التى تهزها الريح ...

سار « حمدى عبد العزيز » وسط الخلائق وهو ينظر إليهم فى دهشةٍ وهو خائر العزم ، واهن الهمة ، ناضب الصبر ، عبوس الوجه ، حتى شعر من شدة الإعياء وكأن الأرض تميد تحت قدميه ...

---

(١) يغذون : يسرعون .
(٢) تخاله : تتخيله .

وفوق رابية عالية قليـلاً عن مستوى الأرض جلس الشاب منفردًا عن النـاس المغتبطين انفراد الطـائر الجريح عن سربـه ، وهو يضع يـده على خده ، فإذا بعينيـه تتسعان وتلتمع من أثر العبرات ، وإذا بـه يفكر بعمق فيما آل إليـه حـاله لعلـه يصل إلى مـا خَفِيَ عن عـاقلته طـوال الشهـور الماضية ...

وبينما هو على هذا الحال إذ به يسمع صـوت جهورى يدوى كصوت الرصـاص فتنبه لمصدر الصـوت فإذا هى امرأة تعنف زوجهـا وهو يقف أمامها مُنكّس الرأس وكأنه الطفل الخجول ، أو لعله الجندى الهمام يقف أمام صف ضـابطه الأعلى فقالت له الزوجـة فى غضب : « يا نهار ...... ، يامـا جاب الغـراب لأمه ، أخـذت الزوجـة تُشير بكيزان الـذُّرة فى وجه زوجهـا وهى تقـول لـه فى حـدةٍ : « أهـذا ذرة تشتريـه يـا أعمى القلب والبصيرة وتدفع فيه نقودًا ؟ أخذ الزوج يربت على كتف زوجته وهو ينظر إلى اليمين والشمال وسرعـان ما قـال لها بصـوتٍ منخفض : « أنـا طـوع أمرك ، ورهن إشارتك يا « مزاجات » ...

هدأت حـدة الزوجـة التى نظرت إلى زوجهـا وقالت : « إذًا عليك أن تُعيد الذرة مـرة أخرى وإياك أن تعود بمثلـه وإلا .. ، وضع الرجل راحة يده على فم زوجته وكأنه أراد ألا تُسمِعَـهُ أكثر من ذلك ، وإذ به يقول لها بصوتٍ خفيض وهو يتحرك من أمـامها ، وعيناه قد كبرت واتسعت من الغيظ : « حمـامة يـا مـزاجـات ويكـون عنـدك أحـلى وأطعم ذرة فى الوجـود » ...

شاهد حمدى عبد العزيز هذا المشهد الذى يُدمي القلوب فوضع كفيه على عينيه وكأنـه يريـد أن يحمى نفسهُ من نفسهِ ، وسرعـان ما قـال محدثًا نفسه بصوتٍ تتمـوج فى مقاطعه معانى اليأس والقنـوط : « يا عينى على الرجل لما يخيب يـا أولاد » ... توقف حمدى عن الكـلام وإذا به يقـول مرة أخرى : « مـا أتعس الرجل الـذى يحب امرأة من بين النساء ، ويتخـذها رفيقة لحياته ، ويهرق[1] على قدميهـا عرق جبينه ، ويضع بين كفيهـا غلة اجتهاده ، ثم يتنبـه فجأة فيجـدها بعـد مـرور السنـوات القـاضى الذى لا يرحم ، والجلاد الذى لا تأخذه الشفقة بمن يقع تحت يديه » ...

اعتـدل الشاب فى جلستـه ، وبعـد ابتسامـة حزينـة قال فى سخرية : « واحسرتاه على حظى العـاثر ، أهرب من لبيبـة لأجد مزاجـات أمامى ، وما مزاجـات ولبيبة إلا امرأتان رضعتا من امـرأة واحدة حتى الثُمالة[2] ، والفـرق بينهما أن زوجتى لبيبة مـا زالت فى مستهل حياتها الـزوجية ، أمـا الأخرى فهى صاحبة باع طويل فى الزواج » ...

وبينما حمدى عبد العزيز شاخص البصر ينظر إلى زوار الحديقة فإذا به يشاهد فتاتين فى عمر الزهـور تسيران سيرًا حثيثًا بجوار والديهما فى رشاقة وكأنهما غزالتان صغيرتان ، وبجـوار الأب تسير الزوجة وهى تتحدث مع زوجها همسًا والابتسامة لا تغادر محياها وهى تنظر إليه فى زهوٍ وافتخار ، وبين الـوقت والآخـر تلتف الفتـاتـان حـول والـديهما وتتمسحـان بهما والسعادة تعلو الوجوه ...

---

(١) هرق : صب .
(٢) الثمالة : البقية الباقية – حتى النهاية .

راق للشاب هـذا المنظر وسرعان مـا اعتلت وجهه البشاشـة ، وغمر قلبـه الحب والحنان وقـال بصـوتٍ مسموع : « بـارك الله لك فى زوجتك وأولادك .. ثم صمت بُـرهةً وقـال مـرة أخرى : « فعـلاً كما قال الشيـوخ والكهول : « المرأة إمـا نورًا يُنير الطـريق أمام الـزوج والأبناء ، وإمـا نارًا تحرق وتُبيد » ...

وبعـد مُضيّ بعض الوقت تـذكّـر حمدى زوجته لبيبـة فتأوه ، وصرخ بلهفـة وتوجُّعْ وقـال بصوت مخنـوق تـرافقه التنهيـدات الأليمة : « كـان اقترانى بها شـقاء ؛ لا بل كان مأساة ملؤها التفجع والتوجع .. نعـم هو لا يزيد على أن يكون كذلك » ...

عاد حمدى بظهره إلى الـوراء وأخذ يستعيد شريط الذكـريات القريب وكأن أمـامـه شريطًا سنيمائيًـا بـالصوت والصـورة وعليـه أن يحكم على مشاهده من بدايتها إلى نهايتها ، فـإذا به يخاطب نفسه قائلاً : « منذ عام تقـريبًا دعتنى نـور العيون وبهاؤهـا أمى الحبيبة إلى الحديث معى فى أمـر غايةً فى الأهميـة ، فلما جلست قبالتها وقلت لها « مُرينى يـا أماه » فقالت وهى تربت على كتفى بحنان الأم : « الأمر لله وحده يا ولدى ؛ ولكن كل ما فى الموضوع أنك فرغت من تأسيس شقتك فى الطابق الذى يلى طابقى كما أمرتـك تمامًا ، حتى تكـون بمثابة المملكـة لك ولزوجتـك لا يشاركما فيها أحـد فيعكر وقتئـذ صفوكما ، وربنـا يا بنى يملـؤها لك بـالبركة مع عروسك المنتظرة ...

اقترب حمدى من والدته وقبّلهـا ثم ربت على كتفيها وقال لها : « أفهم من ذلك أنك تبغين أن أتزوج ؟ » ...

قـالت الأم وهى تهش وتبش : « نعم يـا ولـدى فأنا كما تـرى عجـوز شمطاء[1] بلغت من الكبر عتيـا ، ودب المرض فى جسـدى الواهن بعـد رحيل والدك ، ولا آمل من الـدنيا إلا الاطمئنان عليك فى بيت الـزوجية مع زوجة تكون لك بمثابة الأم ، والزوجة ، والحبيبة ، وخاصة أن شقيقتك « فـوقية » تقطـن بعيدة عنـا ، فأنت وحيـدى وأخشى أن يلتحفنى القبر وأنت ما زلت أعزبًا » ...

قال الابن معقبًـا والغصص[2] يقطع صـوتـه : « أخشى يـا أمـاه إن دخلت قفص الزوجية أن تصاب زوجتى بالغيرة إن رأتنى أحبك كل هذا الحب ، كما أخشى ألا تُدرِك بعاقلتها أننى وحيـدك فى هذه الدنيا ، وقتئذ تنصب حبـالها ، وتتساقط دمـوعها فـأجلس بجوارهـا ، ساعتئـذ يلعب بـرأسى الشيطان فـأتناسى قـدرك ، وأُهمل شأنك فأكـون من الجاهلين ، وعندما أفيق مـن غيبوبتى يوخزنى ضميرى فأقول مـؤنبًا نفسى : « ليتنى مِتُّ قبل ذلك وكنت نسيًا منسيًا ؛ ولكن هيهات ، أيفيد الندم بعد فوات الأوان ؟ ...

لما فرغ الابن من حـديثه قالت الأم وهى تجهش بـالبكاء : « كيف لك أن تقـول مـا تحدثت بـه الآن وأنت تعلم أن المسـافـة بين شقتى وشقتك

---

(١) الشمطاء : التى اختلط بياض شعرها بسواده .

(٢) الغصص : وقوف الماء فى حلقه .

ليست أميالاً ؛ بل هى عدة سلالم إن شئت نزلتها فحصدت حبى ، وحب الله قبل حبى ، وإن لم تشأ وشعرت أن ذلك سوف يسبب لك حرجًا مع زوجتك فقف أعلى السلالم ونادي عليّ همسًا ، فسوف أسمعك آنئذ وتسمعنى ، وسوف يظل لسانى الذاكر يدعو لك ، وقلبى الذى لا يعرف البغضاء راضيًا عنك ...

قبّل حمدى أمه ثم قال لها : « سوف أبحث من اليوم عن عروس تكون قُرّة عين لى ولكِ والله المستعان ...

ولم يمضِ على حديثى مع أمى إلا بضعة شهور وكنت قد اقترنت بفتاة ليس بين الفتيات من تماثلها رقةً وجمالاً ، ولا أخفى عليكم أننى جلست مع زوجتى قبل اقترانى بها وتحدثت معها طويلاً عن قصة كفاح أمى معى أنا وشقيقتى وخاصة بعد رحيل والدى ونحن صغارًا لا نعى ما يدور حولنا .. ومن الأمور التى جعلتنى لا أرى غير لبيبة زوجة لى دون غيرها من الفتيات هو : أننى عندما كنت أتوقف فى الحديث معها لعدة لحظات عن فضل أمى ، وشدة حبها لى ولشقيقتى ، كانت تطلب ، بل تلح عليّ أن استكمل حديثى عن هذه السيدة العظيمة وكأننى أروى لها قصة فيلم حاز على عدة جوائز ، وبديهةً أننى لم أفعل ذلك بنوع من اللهو أو حبى للكلام والشرثرة ولكننى كنت أبغى من وراء ذلك أن تشاركنى حب أمى بعد زواجى منها ...

وبلعتُ الطُعْم عندما ظننت بعقلى وقلبى الذى لا يعرف إلا الحب

والعطاء أن زوجتى لبيبة لن تكون البتة كثعلب شوقى الذى خرج يهدى ويسب الماكرين ...

وأتـذكّر جيـدًا أنـه لم يمـر عل زواجى بلبيبة اللهـم إلا الشهر الـذى يـزعمون أنـه « شهر العسل » ولا أدرى أهــو شهر العسل كما يطلقــون عليه ؟ أم هو « المصيدة » التى يدخلها الرجل بمحض إرادته فيشرب من شهد الخضاب حتى الثمالة ، فإذا به يتحول من ضرغام إلى حمل وديع ، أو لعله يصبح عجينـة لدنة[1] فى يـد شريكة حيـاتـه آنئذ يقطع الأرحـام ، ويغلق الأبواب ، وإذا به يـرضخ للوهم فيرضى بالأضـواء الصناعية التى تبهر العيـون ، ويرفض ضـوء الشمس ، وما أكثـر الحجج والبراهين التى يطلقها اللسان سـاعتئذ كذبًا إذا مـا سُئل الإنسان : فِيَم التقصير فى حق الأحباب ، فيم تقطيع الأرحام ...

وما كاد الشهر المزعوم يمر فى سـلام وأمان دون عِراك ، أو إراقة دماء ، ورأيت زوجتى المصونة مخلوقـة عجيبة لها منقار النسر ، ومقابض النمر ، وأنيـاب الضبع ، ومـلامس الأفعى ، فقلت فى نفسى لعلـه الـدلال ، أو لعلهـا غيرة المرأة الأصيلـة على زوجهـا .. ولكننى شعـرت بقلبى وعقلى الذى يُصدقنى الرأي دائمًا أن زوجتى لا ترغب أن أبارح شقة الزوجية إلى غيرها ، أو أهبط السلالم حيث توجـد أمى العجوز التى تفرح بقدومى كما أفـرح بقـدومهـا ؛ بل شعرت أننـى لا أزيد عن عصفـور الكنـارى هـذا حبيس القفص الذى أحضرته معها لبيبـة من بيت أبيها ، فإذا بها تطعمه

(١) لدنة : ليّنة .

وتسقيه بيديها ظنًا منها أن حبيس الأقفاص لا يحتاج إلى الحرية بقدر ما يحتاج إلى الطعام والشراب .. فلما اقتربتُ منها ، وربتُ على كتفها بحنان الزوج ، وأردت أن أُعلمها أن حق الأمهات مقدم على حق الزوجات ، وأنه لا يدخل الجنة قاطع رحم .. تنحت عنى واجهشت بالبكاء وقالت : هيت لك تفعل بى ما تشاء ولكن ليس قبل أن تعلم أنى لا أرى غيرك فى اليقظة والمنام ، فأنت عصفورى وزوجى ؛ ولن أسمح أن يمتلكك غيرى ما حييت ...

وذات يوم جلست بمفردى أفكر فيما آل إليه حالى بعد الزواج ، فإذا بى أصارع عواطفى تارة ، وأخرى أغالب ميول نفسى ، ورأيتنى والعبرات تتساقط على محياى كأنها السيل العرم ، ووجدتنى أتحدث مع نفسى فأقول : كيف أرضى أن تقودنى زوجتى مثلما يقود البصير ضريرًا أعمى ، أى تعاليم دين جعلت زوجتى تصير كالذئب بين الخراف ، لماذا تريدنى أن أكون عاقًا قاطعًا للأرحام ؟ ...

نهضتُ من مكانى واتجهت إلى باب الشقة ففتحته ، ثم أوصدته من ورائى ، وخرجت من باب العمارة وسرت بين الخلائق وأنا أتمتم ببعض الكلمات فأقول : « لن تكون مشيئة السماء بأن أقطع جناحى بيدى ، وأرتمى على الرماد حاجب رأسى بساعدى ، ساكبًا حشاشتى من أجفانى قائلاً : هذا نصيبى من الحياة .. لن أرضى أن يموت قلبى فى داخلى ، وتلتهب دموعى فى عينى ، أو أكون عبدًا متصاغرًا إلى آخر العمر ...

هب حمدى عبد العـزيز من مقعده فوق الرابيـة فى الحديقة ، وقبل أن يتحرك خطوة إلى الأمام أخذ ينظـر ذات اليمين وذات الشمال وهو عاقد العزم أن يُعطى صاحبة الصون والعفاف لبيبة عبد الوهاب حريتها ، فهو لم يعد فى حـاجة إليها ؛ ولكنه سـوف يتركها من اليوم لعصفـورها حبيس القفص ؛ وليـذهب هـو إلى عصفوره العجـوز حتى يفعل الله أمـرًا كـان مفعولاً ...

وبينما حمدى يسير فى الحديقة فإذا هـو يقترب من مزاجـات التى رأها تجلس مع زوجهـا وأولادها وهم يلتهمون الـذرة ، وأمامهم الأيس كـريم فأدرك بعاقلتـه أن الزوج المسكين أخذ ينفـق ماله فى بـذخ لعله يصل إلى قلب مزاجات التى ما زال صوتها يعلـو إلى عنان السماء وكأنه أزيز طائرة أسرع من الصوت تحلق فى السماء على ارتفاع منخفض ..

نظر حمدى إلى زوج مـزاجات وقال سـاخرًا : « الفـرق بينى وبين هذا الرجل أنـه رضى أن يجعل لمصيبته صوتًـا صارخًا ، أمـا أنا فلن أرضى أن أجعل لمصيبتى صوتًا صارخًا ؛ بل سوف أجعلها مصيبة خرساء ...

وخرج حمدى من الحديقة وهـو يردد قول الله تعالى: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعـوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ .





الضبـــاب

كـان الهزيع الأول من الليل قـد مر ، وعـويل الأريـاح الباردة يـدوى ويصفر فيسمعه من بالـداخل فترتعد فرائصه [1] ، ويقترب من المدفـأة كـالطفل الـذى يحتمى بصـدر أمـه عندمـا يحيق بـه الخطـر ، أو لعلـه كالسـائر الذى يحتمى بالمظلة فى يوم قائظ ، أو فى يوم اشتدت فيه هطول الأمطار ...

أما السائرون بـالخارج فأنت إذ تطالعهم وهم يهرعون لتعجبت لحالهم ولقلت من توك : « إنهم فى سبـاقٍ أو لعلهم أُسود كـواسر تعدوا وراءهم وتقفوا [2] أثـرهم ، ومـا هم فى سبـاق ، ولا هى الأسـود الكـواسر تتبع خطـواتهم ولكنه بـرد طوبـة وما أدراك مـا بـرد طوبـة عندمـا يتسرب إلى الأجساد ...

فى ذاك الـوقت كانت « سلمى عبـد الستـار » التى لم تتجاوز العِقـد الرابع من عمرهـا تفتح باب شرفة شقتها بالدور الرابـع غير هيابة بعويل الريـاح الباردة ، ولا بالهواء يتـلاعب بجدائل شعرهـا ، فالهدف أسمى ، والانتظار كاد أن يقتلها ويوقف قلبها بين جنبيها ...

أوصدت المرأة بـاب الشرفة من ورائهـا وأخذت تجول ببصرهـا فى كل

---

(١) ترتعد فرائصه : شدة الخوف . (٢) تقفوا : تتبع .

اتجاه علها تجد من تبحث عنه ، وهى تنتظر قدومه من بعيد ؛ ولكن هيهات ما زال الوقت يمر على غير طائل ...

جلست سلمى على أحد الكراسى المصنوعة من الخيزران ، وفوق رأسها سراج ضعيف يبعث أشعته الصفراء الخافتة الضئيلة إلى قلب الظُلمة ، مثلما تبعث الصلاة الانشراح والطمأنينة إلى قلب تقى ورع ...

أخذت المرأة تنظر إلى الظلام من حولها ، وهى تستفرغ الدموع من عينيها ، وتنتحب بصوت عميق جارح وكأنه خارج من صميم كبدها .. وسرعان ما رفعت رأسها إلى أعلى فوجدت النجوم تزين السماء ، فانبعث فى قلبها الأمل ، وإذ بها ترفع يدها إلى صفحة السماء وتقول : « أيها العدل الكامن وراء هذه الصورة المخيفة ؛ بل يا حى يا قيوم يا من تجيب دعوة الداع إذا دعاك ، أنت السامع عويل الأرياح ، وعويل نفسى ، ونداء قلبى المتهامل ، منك وحدك أطلب ، وإليك أتضرع ، بيمناك روحى ، وبنظرة منك يا أرحم الراحمين يعود زوجى كما كان ، ويسلم من رفاق السوء ...

أغلقت سلمى الشرفة وجلست فى رواق الشقة وهى خائرة القوى ، مثقلة بالهموم ... وسرعان ما تذكرت سنوات زواجها التى مرت فاعتلت البشاشة وجهها ؛ ولكنها لما عادت بظهرها إلى الوراء تذكرت تلك الشهور القليلة التى ولت ، فامتعضت وتجهم وجهها ، وتأوهت وقالت محدثة نفسها وهى تنظر إلى الجدران : « لن أنسى هذا اليوم الباسم أوله ، الباسم آخره يوم دخلت على أمى وأنا بثوب الزفاف ، وأستعد للرحيل

تـاركةً بيت أبى إلى منـزل زوجى ، فـوقفت بجـوارى وقالت بحنـان الأم ناصحـةً لى : « كونى عونًـا لزوجك ، فلما سألتها كيف ؟ قـالت : « كونى عينيه التى يرى بها ، وأذنيه التى يسمع بها ، وقلبه الذى يخفق بين جنبيه ، وعصاه التى يتوكأ عليها ، وكونى لـه نورًا ولا تكونى لـه نـارًا ، ولتعـلمى أن مـرارة الرجـل صغـيرة لا تحتمـل الحُـزن فكونى صبـورة معه قـدر استطاعتك » ...

ومن وراء أمى جاءت أم زوجى توصينى بولـدها فقالت : « إنه يحبك بل يعشق صورتك ، فاغفرى له زلته ، يغفر لك هو زلتك » ...

ورحلت عن بيت أبى إلى بيت زوجى وأنا عاقدة العزم أن أتبع زوجى إلى أرض بعيـدة ، إلى أقـاصى العـالم ؛ بل إلى مكـامن الجن إذا دعت الضرورة إلى ذلك ...

وحصدت السعـادة والهناء بالقـرب من زوجى ، وبقرب زوجى منى ، وبالرغم من مـرور السنوات العديدة على زواجنا الـذى أثمر عن إنجاب ولدين وبنتًا إلا أننى لم أفق من هـذا الحلم الجميل رغم مسئوليات الحياة المتلاحقة ، إلا منذ بضعة شهور عندما تبدل حال زوجى إلى النقيض من رجل يحترم ويقدس الحيـاة الزوجيـة ، ويرعى شئـون كل أفراد الأسرة فإذا به يُسدى النصيحـة لهذا ، ويداعب هذه ، آنئذ تخيم السعـادة بل ترفرف على جـدران المنـزل .. فقـد تحول إلى رجل يسير فى رواق منزلـه كـالنمـر المسجـون ينـادى علىّ وعلى أبنائه بـأعلى صوتـه ، وإذا بكلمات السبـاب تتطاير منْ فمه كما تتطاير ذرات المبيد الحشرى فتزكم وتتسد الأنوف .. ولم

يتوقف حاله عند هـذا الحد بل تجاوزه عندما أضحى يقضى أكبر شطرىّ الليل بخارج المنـزل فيحرمنا سـاعتئذ من وجوده بجـوارنا ، والأدهى من ذلك أنـه أصبح ينهرنـا بيده لأبسط الأسبـاب ، وكأنه أراد أن يتبع معنـا سياسـة جديـدة لم نألفها منـه من قبل ، أو لعله أراد أن ينتـزع هذا الحب الجم الذى استفـرغه فى قلوبنا طيلـة السنوات الماضية ، وبـالرغم من أن الشيطـان أخذ يلعب بـرأسى ليحـول هـذا الحلم الجميل إلى تذكـارات مـوجعة تـرفـرف كالأجنحـة غير المنظـورة حول رأسى ، مثيرة تنهيـدات الأسى فى أعماق صدرى ، مستقطرة دمـوع اليأس والأسف فى أجفانى .. فسحقًا للشيطان الذى يلعب معنا نحن بنى البشر لعبة القط والفأر ، وتبًا لى إذ أعطيته رأسى ليعشش فى تلافيفها ؛ ولكـن هيهات أن يذهب كل هذا الحب فى مهب الريح ...

ولا أُخفى عليكم أننى اقتربت منـه ولا زال كـلام أمى وأمـه يـرن فى أُذنى لأعـرف منــه فِيَم هـذا التغيير المفـاجـىء ففشلت ، ورغم ذلك لم يتسرب اليأس إلى قلبى ، وهأنــذا أجلس اليـوم أتـرقب قــدومـه ؛ ولن أستسلم لملك الـرُقاد الـذى أراه يسابقنى وأسـابقه ولكننى سـوف أعمل جـاهدة على سبـاقـه لحين عـودة زوجى الحبيب لأقـول له كلمـة ، وإذا أدركنى الموت قبل أن ألفظها فسـوف يقولها الغـد ؛ لأن الغد لا يترك سرًا مكنونًا إلا باح به ...

بعد قليل عـاد « يسرى عبد الحميد » من الخارج وهو يشعـر بالإعياء الشديـد يدب فى جسده ، فلما شـاهد زوجته فى انتظـاره تظاهر بـالقوة ، وتنحى ببصره عنهـا وتقـدم فى السير ، فـاستـوقفتـه سلمى وقـالت لـه

والابتسامة لا تغادر محياها : « هلا أُحضر لك طعام العشاء ؟ فلما لم يأتِ الرد إليها قالت له مرة أخرى : « هلا من دقيقة تجلسها معى فلم تأتِ إجابة عن سؤالها الثانى ، فإذا بها تصمت برهةً ثم تقول وهى تنظر إلى زوجها : « إن شئت جلست معى ، وإن لم تشأ فلا تثريب عليك ..

احمر وجه يسرى خجلاً وقال لسلمى بعد أن جلس قُبالها : « هاتِ ما عِندكِ ..

اعتدلت سلمى فى جلستها وقالت : « سألتنى بالأمس بُنيتك فقالت مستفسرة : « ما لى أراكِ يا أماه إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلمت غيرك لم تبكهم ؟ قاطع يسرى زوجته وقال لها فى تؤدة : « وماذا قلت لها ؟

– قلت لها وأنا أربت على كتفها فى حنان : « ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة » ...

هب الرجل من مكانه وقال لزوجته فى حدة وغضب : « ماذا تعنين من كلماتك هذه ؟ قالت سلمى فى هدوء وسكينة : أين ذهب ذاك السرور الذى كان ملاصقًا لنا ؟ أَسلَبَه ظلام الليل وأنت بعيد عنا ؟ أم سلبه هؤلاء الأقزام العُتاة الذين تجلس معهم شطرىّ الليل وتفضلهم عنا ، والذين يجهلون متى يكون الإنسان خاطئًا أو بارًا ؛ بل ينظرون بأعينهم الضئيلة إلى ظواهر الأعمال ولا يرون أسرارها ، وقتئذ يقضون بالجهل ، ويدينون بالعماوة ، ويستوى أمامهم المجرم والبرىء ، والأعمى والبصير ، والصالح والشرير ، فويلٌ ساعتئذ لمن يقضى ، وويلٌ لمن يُدين ...

سكتت سلمى برهةً من الوقت ثم قالت : « أستحلفك يا حبيب العمر بأفراح قلبك ، وأوجاع قلبى ؛ بل أستحلفك بمخبآت صدرك أن تعود ، ولتدع الظلام للوطاويط فهم يعشقون الليل ، ويرفضون النهار ، ولا تنس أنك رجل جعلته الثروة فاضلاً ، والفضيلة مُثريًا ...

كبرت عينا يسرى عبد الحميد واتسعت من الغيظ ، واضطربت أحشاؤه وقال بصوتٍ عالٍ : « أنا رجل البيت وسيده المطاع ، أفعل ما يحلو لى وقتما أشاء ، وما أنتِ إلا عبدة وأسيرة فى هذا المنزل فعليك الآن أن تصمتى ولا تتكلمى البتة ، فإن شئتِ جلستِ فى هذا المنزل على هذا الحال دون أن ينبث فمك ببنت شفة ، وإن لم تستطيعى معى صبرًا فارحلى عن هذا البيت رافقتك السلامة » ...

سمعت سلمى هذه الكلمات فتغيرت ملامحها ، وجمدت عيناها وكأنها رأت شبح الموت منتصبًا أمامها ، ثم شهقت وتململت متوجعة كعصفور رماه طائر الرصاص[1] فهبط على الحضيض مرتجعًا بالآلام .. وبعد هنيهة لم تشعر سلمى الزوجة الوفية إلا بالحب يعتنق لسانها فتكلمت ، ويمزق أجفانها فبكت ، وإذا به يفتح حنجرتها فتنهدت وقالت لزوجها ونجيع الدعاء ينهل بغزارة من صدرها البلورى : « أيقدر الأسير المثقل بالقيود أن يلاحق هبوب نسمات الفجر ؟ ولكن أليس السكوت أصعب من الكلام ؟ صمتت سلمى برهة ، ثم قالت مرة أخرى : « لن تكون مثل « بشندى » هذا معقوف الشارب الذى يقطن

---

(١) طائر الرصاص : الصياد .

بالدور العلـوى من عمارتنا ، واتخذ من صوته الجهـورى ، وسيل الشتائم والسباب الـذى يطالع به زوجتـه كل يوم سبيـلاً لثبات ذاته ظنّـا منه أن الرجولة مـا هى إلا شارب معقوف[١] ، وسيل عـرم من السباب يسكبـه الـرجل فى وجـه زوجته أمـام أولاده وجيرانـه .. كيف رضيت لنفسك أن تقلد بشنـدى هذا عنـدما أطلقت لشـاربك العنان ؟ أم أنك تقلـد أحد رفاق السوء الذين يعيشـون فى الخفاء ؟ ولن تكون كهذا العتل[٢] البخيل الـذى يقطن بالـدور الأرضى فإذا بـه يُسخر عمـره ووقته لجمع الأمـوال المرقمة بترقيـم البنك ، فخسر والله آنذاك نفسـه دون أن يدرى ، كما خسر كل المحيطين به .

قـالت سلمى ذلك وصـدرهـا يعلـو ويهبط من شـدة الحزن وإذا بها تنصرف إلى حجرتها وهى تغمض أجفانها كيـلا تُرى ، وتغلق أذنيها كيلا تُسمع ...

ومرت الأيام والأسـابيع وحال يسرى عبد الحميـد كما هو لم يتغير قيدَ أُنملة ، وإن كـان شاربـه الذى أطلق لـه العنان قـد كبر وأصبح معقوف الطرفين إلى أعلى قليلاً ...

وذات يـوم - وكـان يـوم أجـازة - جلس يسرى مع زوجتـه وأولاده ، الـرجل يقرأ الصحيفـة وهو ملتـزم الصمت تمامًـا ، أما سلمى فأخـذت تتجـاذب أطـراف الحديث الممتع مع أبنـائهـا لتضفـى عليهم البهجـة والسرور ...

---

(١) معقوف : شارب ملتوى أو منحنى بزاوية .
(٢) العُتل : الذى يميل إلى الشر - أى رجل جاف غليظ .

وبينما هم على هذا الحال ، فإذا بصوت بشندى ساكن الطابق العلوى يعلو وكأنه المذياع ، أو لعله الميكروفون ، وإذا بكلمات السباب تتطاير ذات اليمين والشمال ، إلى أعلى وإلى أسفل فيسمعها الغادى والرائح .. فلما توقف صوت بشندى قليلاً ، فإذا بصوت زوجته يعلو هى الأخرى قائلة له فى حدة : « ثكلتك أمك ، يا شنب شندى الأشناب ، يا شنب عـ...... كذاب . » ...

امتعض يسرى لهذا الحديث فور سماعه له ، وسرعان ما طرح الجريدة جانبًا وقال بصوت مسموع : « ياخيبة الإنسان عندما يلهى ميوله ببهرجة المرئيات التى تعمى البصيرة عن أسرار الحياة ، وتحول النفس عن إدراك خفايا الكيان إلى ملاحظة الملذات الوقتية ...

ترك يسرى مكانه واتجه إلى داخل الشقة ، وغاب قليلًا ، وعاد ليجلس مكانه مرة أخرى وهو يضع يده اليسرى على شاربه الذي قام بحلقه منذ قليل ، فلما شاهدته سلمى والأبناء ابتسموا ولم يعلق أحدهم ..

لم يهمل القدر يسرى ، أو لعله تبسم له ، ومن يدرى لعل السماء قد استجابت لدعاء زوجته ، عندما جن جنون المدبولى ساكن الدور الأرضى ، فإذا به يصرخ فى وجه زوجته ، ويلطم الخدود لما سولت نفس زوجته أن تأخذ من النقود (الثرى نمبر) فى غفلة منه ، بعد قليل سمعت أسرة يسرى عبد الحميد أولاد المدبولى وهم يصرخون ويولولون قائلين لأمهم : « بابا المدبولي مات يا ماما نجية ، فإذا بالمرأة تهدئ من روعهم فتقول : « الشر بره وبعيد يا أولاد ، ده مغمى عليه بس ، لا تخافوا ولا تحزنوا ...

هب يسرى من جلسته مذعورًا فنظر إلى زوجته وأولاده وقال والحسرة تعلو وجهه : « يا لخيبة المدبولى هذا الذى أخذ يعدد ماله ظنًّا منه أن المال يخلد الإنسان ويطيل من عمره ، وقد غاب عن عقله أو لعله لا يدرى أن المال حظ ينقص ثم يزيد ، وظل ينحسر ثم يعود .. اقترب يسرى من زوجته وأولاده وأخذ يهش ويبش لهم ، ثم أخذهم جميعًا فى حضنه وهو ينظر إلى باب المنزل ويقول بصوت عال : « استيقظوا أيها النيام ، وانتبهوا أيها السكارى ، وأسرعوا لنريكم أسرار الحب والموت والحياة ... صمت يسرى لحظات ثم قال مرة أخرى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أدخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ... ﴾ .





أعين الرقبــاء

انتصف الليل أو يكـاد ، وغمرت الظُّلمـة البطاح والأوديـة ، وتوارى النـور الضئيل اللهم من حشـاشـةٍ تنبعث من حجـرةٍ بـالطـابق الثـانى لإحـدى العمارات بحى السيـدة زينب ... وأنت إذ تطـالع نـافـذة تلك الحجرة الموصدة ، وأمعنت فى النظر إليهـا والنور الخافت يأتى من ورائها لتـوجست خيفةً ، واتسعت عينـاك وكبرت ، وازداد خفقـان قلبك وقلت من توك : « رُحماك رباه من تلك الأشباح والعفاريت التى ترتع وتلعب فى غفلـةٍ من سـاكن الجدران ... ومـا هى بالأشبـاح والعفـاريت كما يبـدو للناظر ؛ ولكنه خيال « باهر عبـد الحميد » الطالب بكلية الحقوق ساكن الحجرة ...

حـاول الشاب أن يـرقد قليـلاً لعل تفكيره يهديـه فيما أصبح شاغلـه الوحيـد هذه الأيام ، فشعر وكـأن فِراشه قد بُـدر بالهراس[1] ، فهب مـن رقدتـه وأخذ يروح ويجىء فى حجرتـه على غير طائل ، وسرُعان مـا اندفع إلى باب الحجرة ففتحه ، وإذا به يـدور بعينيه فى كل اتجاه باحثًا عن والده فلما وجده جلـس بجواره وقد اطمـأن فؤاده ، وانفرجـت أساريره وكـأنه ظمآن رأى ينبوع الماء البارد فى اليوم القائظ ، أو لعله الجائع الذى يسير فى البيداء باحثًا عن الخبز اليابس فإذا به يرى المن والسلوى ...

---

(١) الهراس : الدق : أى كأن الفراش تمزق من كثرة التقلب عليه .

أما والـد باهر فهـو شيخ جليل فى الخامسة والستين من عمـره ، تدل ملامحه المتجعدة على الهيبـة والوقار ، وكان بجـانب هذا عفيف النفس ، جم الأدب ، خفيض الصـوت ، ساعيًـا إلى الخير نابـذًا العنف ، عاشقًـا للثقافـة ، لماحًا إذا نظـر إلى أحدٍ استطـاع فى سهولـةٍ ويسرٍ أن يعرف مـا يدور بعاقلته ، وما يجيش بقلبه ...

نظر الشيخ إلى ولـده ثم ربت على كتفه فى حنانٍ وقـال له : « هل من نقود تحتاجها ؟ أو نصيحة أُسديها إليكَ ؟ » ...

أجـاب الابن والده بصـوتٍ منخفض تخالـه أنينًا صـادرًا من أعماق الأرض ، وكأنه التلميـذ يجلس قبال معلمه أو يكاد ، أو لعلـه الابن البار يُصغى لنصيحة والده الذى يُدرك بعقله كم هو يحبه ...

ساد الصمت قليلاً ؛ ولكن سرُعان مـا هش وبش الشيخ عبد الحميد لباهر وقال : « فِيمَ سؤالك اليوم ؟ سل وكلي آذان صاغية ؟ ...

اعتـدل الشـاب فى جلسته وقـال مستفسرًا : « هل يأذن لى الصـديق الوالد وأنا وحيده أن أعمل فى فترة الصيف على سبيل التجربة ، وتخفيف العبء عنك لا أكثر من ذلك ؟ .. توقف باهر عن الحديث ، ثم نظر إلى والده فوجده فاغرًا فاه من الدهشة ، فخفق قلبه بين جنبيه ، وزاد خفقانه لما سمع والده لأول مرة يقول له بصوتٍ يشابه ضجيج الأمواج : أجننت أنت ، أم طـاش سهمك ؟ كيف لك أن تطلب ذلك وأنـا الـذى أُكفيك ولا أرفض لك طلبًا فيه النفع لك ، أوَليسَ الأجدى أن تجعل العلم نبراسًا فى الصيف والشتـاء بل وطوال العـام حتى تفرغ من دراستك الجامعيـة ،

آنئذ يصبح الطريق أمامك معبدًا واضح المعالم ، وقتئذ تفعل ما يحلو لك وأنت أقوى مما أنت الآن ؛ ولن تكون قويًا إلا بالعلم ...

عقّب باهر على حديث أبيه فقال والغصص يقطع صوته : « أوَليسَ أنت القائل يا أبى : « إن العمل يجعل للإنسان معنًا شامل يتسامى فوق كل المقادير والمقاييس البشرية ، ويقيم له وزنًا يضيق به الزمان والمكان ؟ ..

شعر الوالد بأنفاس ولده لا تكاد تخرج من فِيهِ ، كما شعر أن صوته بح أو لعله توقف فى حنجرته فأشفق عليه وقال له : « أخشى عليكَ وأنت تخوض التجربة بمفردك أن تتعثر ، أو تزل قدماك فلا تستطيع الوقوف أو الوثوب مرة أخرى ...

قاطع الشاب والده قائلاً : لن أكون بمفردى ؛ بل أكون مع مجموعة من شباب الحى أظنك تعرفهم حق المعرفة .. اعتدل الشيخ فى جلسته واعتلت البشاشة وجهه وقال: ومن هؤلاء الشباب يا تُرى؟ .. التقط باهر أنفاسه ، وعاد بظهره إلى الوراء وقال : « محمد مصطفى عبد الكريم » ، أتعرفه يا أبى ؟ .. قال الشيخ عبد الحميد معقبًا : ومن لا يعرف هذا الشاب الذى جمع بعد رحيل والديه بين العلم والعمل فتفوق فى المجالين لأنه منذ البداية حدد هدفه ، والطريق الذى يسير فيه ...

صمت الوالد برهة ثم نظر إلى ولده وقال : لا أخشى عليك من العمل مع هذا الشاب لأن حبه استولى على قلبى وقلوب الآخرين ممن

يعرفونه، آنئـذ انفرجت أسارير باهر وقال: «ومع سيد زهير عبدالسلام»، وأظن أنك تعرفه هو الآخر يا أبى ...

تجهم وجه الأب ، وجمدت ملامحه وقال بصـوتٍ خفيض تخاله صوت سقيم يعانى من سكـرات الموت ، وروحه قد بلغت الحلقـوم : أليسَ هو ابن هـذا الشيخ الأصلع البطين ، البخيـل الـذى يحرص على أنفـاسـه ، ويدخر ما لا يحتاج إليه ؟ ...

قال باهر فى دهشةٍ : « نعم هو يا أبى ؛ ولكن ما الضير فى ذلك ؟ ...

أخذ الشيخ عبد الحميـد يهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال ثم قال فى أسفٍ : وا أسفـاه ، إنى أخشـى على هــذا الشــاب من العمل ، كما أخشى عليك من هذا الشاب ...

اقترب بـاهر من والـده ثم أخذ يُقلب كفيـه مبتسمًا ثم قال : والـذى نفسى ونفسك بيده يا أبى لا أعى ماذا تقصد بقولتك هذه ، ولم أتعود أن تطرح علىّ ألغازًا من هذا القبيل ...

هب الأب واقفًا ، وسار عدة خطـوات فى الحجرة ثم استدار ونظر إلى ولـده وقال لـه : « للروح أجـواء فسيحة هى أشبـه باليم يـروّدها الفكـر والخيال والأحلام ، وهذا الشاب عنـدما ينخرط فى العمل ويتربح سوف يقارن بين التعليم فى ظـل والده البخيل ، وبين العمل الـذى يحصل منه على المال الوفير من وجهـة نظره هـو لأنه تربى منـذ نعومـة الأظفار على الحرمان ، وقتئـذ سوف يـودع التعليم ، ويـولى وجهه شطـر المال المقرون

بـالعمل .. وإنما أخشى وهو خليلـك أن تتخذه مثلُك الأعلى آنئـذ تترك التعليم لما يصـور لك عقلك أن تفعل مثلما فعل الغـراب عنـدمـا أخـذ يحاكى هـزاز الذيل (أبـو الفصاد) فى مشيتـه فإذا به ذات يـوم يخفق فى مشيته ، كما أخفق فى مشية أبو الفصاد .

غرق باهـر فى الضحك وقال معقبًا وما زالت البشاشـة تعلو وجهه : لن أرضى لنفسى أن أعيش حياتى غرابًا ينعب[1] فى الخرائب والحقول ، وإن اجتمع علىّ الناس من كل صوب ليجعلوننى أعدل عن رسالتى فلن يستطيعوا معى صبرًا ...

انفرجت أساريـر الشيخ عبد الحميد الذى راح يـربت على كتف ابنه ويقول: « ومن رابعكم يا تُرى ؟ ..

قال باهـر وهو يعود بظهره إلى الوراء : رابعنا « عبـد الكريم الصاوى أحمد » ابن هذا التاجـر الثرى الذى يتحدث عن ثـرائه الغادى والرائح ، ورغم ذلك فضل ولده أن يعمل معنا ...

تطـاولت رقبـة الشيخ عبـد الحميد ، واتسعت عينـاه وكبرت ، وبعـد تنهيدة تحمل فى فحـواها الحزن قـال : مسكين هذا الشاب ، فهـو ضحية أب شغل نفسه فى جمـع المـــال وعقـد الصفقات عما سواهما ، فإذا به لا يشعر بالعاطفـة الأبوية نحـو أولاده ، ولا تبتسم شـــفتاه لرضـــيع ، ولا يحمل طفلاً على منكبيه ، فتراه أعمى وإن لم يفقـد بصره بعد ، أو لعله الحى الميت ...

---

(١) ينعب : يصيح .

قاطع باهر والده وقال له فى دهشةٍ : « كيف ذلكَ ؟ وكلنا نعلم أن عبد الكريم يعيش فى منزل أشبه بالقصر ، يحاكى مقدار الثراء والنعمة على كل من يعيشون بداخله ؟ .. قال الشيخ معقبًا فى تؤدة : « قد تبدو بعض المنازل من الخارج كالقصور ؛ ولكن عندما تجول ببصرك بداخلها تجدها خَرِبَةً مُظلمة كالقبور آنئذ تدرك ما خَفِىَ عليك من قبل ...

لا أُخفى عليكم أننى تأثرت من كلام والدى ، وشعرت بجاذب خفى يدنينى إليه بطمأنينةٍ كما تقود الغريزة العصفور إلى وكره قبل مجىء العاصفة ، ولا أخفى عليكم أيضًا كم كانت سعادتى لما سمعت والدى يقول لى والبشاشة تعلو وجهه : « أوافق أن تخوض التجربة يا باهر ولكن ليس قبل أن تسمع منى هذه الكلمات التى علمنى إياها جدك – رحمه الله – فلما تهللت من الفرحة ، وقلت له مُرنى أبتاه قال : إياك وعصابات الظلام ، وربائب الفكر الضال فهم كأفاعى البحر التى تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة ، وتمتص دماءها بأفواه عديدة .. وحتى يكون لكَ شأنًا بعيدًا عليكَ أن تعلم : أنه بعرق جبينك تأكل خبزك ؛ ولكن إذا أكلت خبزك بعرق الآخرين فأنت آنذاك تكون ظالم لنفسك وللآخرين ...

وانبلج[1] نور الصبح بوضاءته وقسامته ونوره الممتزج بقطرات الندى ، وخرج الأصدقاء الأربعة وهم يرفعون رؤوسهم تيهًا وافتخارًا ، وسرعان ما شمروا عن سواعدهم الفتية ، وأقبلوا على العمل فى « طائفة

(١) انبلج : وضح وظهر .

المعمار » التى اختاروهـا بأنفسهم إقبال الظامىء على الماء البـارد فى اليوم القـائظ ، فلما مرت الأيـام ، وتعـاقب الليل والنهـار شعر الشبـاب أنهم يتقنـون العمل ؛ بل ويعـرفـون كل صغيرة وكبيرة عن مهنـة المعمار ، وزاد شعورهم بذلك لما نظروا حولهم فوجدوا البناءات قد تطاولت وجيوبهم قد امتلأت بالأوراق النقدية من جميع الفئات المختلفة ...

ذات يوم جلس الشبـاب فى ظل أحد الجدران ، يلتقطـون أنفاسهم ، ويتجاذبـون أطراف الحديث ، فإذا بعبـد الكريم ، وسيد زهير يتحـدثان بلهجةٍ كما وأنهم من أرباب الشوارع وليسوا من أرباب العلم .. بعد قليل شاركهم الحديث بنفس اللهجة باهر عبد الحميد ...

نظـر الشباب إلى صـديقهم محمـد مصطفى لحثه على مشـاركتهم فى حديثهم هـذا ، فوجـدوه فاغرًا فـاه من الدهشـةِ ، فتوقفـوا عن لغوهم ، وسألوه فقالوا : ألم يرقَ لكَ حديثنا ؟ ..

اعتـدل محمد مصطفى فى جلسته وقال والغصص يقطع صوته : لا ، لم يعجبنِ حديثكم اليوم والبارحة ، وأظن أن ما فعلتموه اليوم والأمس هو بدايـة الانحراف عن الطـريق القـويم ، فإذا ســولت لكم أنفسـكم أن لا تحيـدوا عن هذا الطـريق المظلم فتبًا لكم من أصدقـاء ، وعليكم من اليوم فصـاعدًا أن تستعـدوا ليبتلعكم البحر فى جـوفه بـلا رحمة وأنتم فى غفلـةٍ مما تصنعـون ، فعندمـا تستقرون فى القـاع تصبحون طعـامًا شهيًا لحيتـان البحـر وأسماك القرش ، بعـدمـا تصمـوا آذانكم عن سماع هـذه

الأبواق التى تنـاديكم ؛ بل ترجوكم العـودة ، وتغـمضوا أعينكم حتى لا تروا « أعيُن الرُقباء » وهى تذرف الدمع شفقة عليكم ...

احمرّ وجه باهر عبد الحميد خجلاً من حديث محمد مصطفى ، ودون أن يشعر وجـد نفسه يبتعـد عن عبد الكـريم ، وسيد زهير ، ويقترب من محمد حتى يكاد يكون جسده التصـق بجسـد صديقه وهو لا يدرى ، أو لعله أراد أن يحتمى بـه ، ومن يدرى لعلـه أدرك بعاقلته مقـدار الخطر الذى يحيق به إذا استمر فى السير بهذا الطريق ...

ســاد الصـمت قليـلاً بين الأصدقاء ، وسرُعـان ما قطـع السكون عبد الكـريم فقال فى سخرية مـوجهًا حديثـه إلى محمد مصطفى : كيفَ لكَ أن تُعنفنـا كل هذا التعنيـف وأنت الذى تـرانـا هَهنا كل يـوم نعمل ونربح ؟ ...

قال محمـد مصطفى بصوتٍ خفيـض معقبًا : « لِكم عنـدى حقان ، وأنتم كما تعلمون عنى أننى أحب أن أعطى كل ذى حق حقه » ...

هب سيـد زهير من جلسته وأشـار بسبابتـه إلى المتحدث وقـال له فى حدةٍ وغضب : « وما هو حقنا الذى تدّعى أنه عندك يا تُرى ؟ ..

التمعت عينـا محمـد مصطفى بـالعبرات وقـال بصـوتٍ تتمـوج فى مقاطعه معانى اليأس والقنوط : « أما حقكم الأول علىّ فهو حق الجيرة ، وأما الثانى فهو حق الصداقة بينى وبينكم » ...

عقّب عبد الكـريم على حديث صـديقه فقـال له فى سخـريةٍ : « إذًا عليك أن تعلمنا ما هو الخطأ الذى أقـدمنا عليه بصفتك مُعلمنا وقائدنا

المختار ، الذى انتـدبته العقول البشرية ممثلاً لها ، واتخذت لسانـه ترجمانًا عنها ؟ ..

قال محمد مصطفى فى أسفٍ : « قالوا فى الأمثال (يا بخت من بكانى وبكى النـــاس علىّ ، ولا من أضحكنى وأضحك النـــاس علىّ) ، وأنا رأيتكم تتحدثون بلهجة أبناء الشوارع بعـدما تناسيتم لهجة أرباب العلم التى ألفتموها ، وليس هذا فحسب بل رأيتكم أيضًا تسايرون أُناسًا لستوا منهم وليسوا منكم فى عاداتهم ، وشربهم ، وسهـراتهم فأضحت جيوبكم خاوية على عروشها بعد أن كانت مكتظةً بالنقود ...

نظر عبد الكريم ، وسيد زهير إلى الصديـق وقالا له فى حدةٍ : فلتدعنا وشأننا حتى ولو قالوا لكَ ابتعلها البحر ، أو اغتالتها البيداء ، ويجب أن تعلم إننا خـرجنـا ليس فقط مـن أجل خـوض ميـدان العمل على سبيل التجربـة ؛ بل خرجنـا لنعرف كل صغيرة وكبيرة عن أربـاب العمل ؛ ولن يتأتى لنـا ذلك إلا عنـدمـا نعيش كما يعيشـــون ، ونشرب كما يشربـون ، ونتحدث بلهجتهم ، وإذا زادوا زدنا ...

لما فـرغ الحديث بين الشبـاب انصرف كـل منهم إلى عملـه ليعمل فى صمتٍ ، وكان أمرًا لا غرابة فيه منذ ذلـك اليوم أن ترى باهر عبد الحميد قريبًـا من محمد مصطفـى حتى ازدادت بينهما أواصر الصداقـة والمحبة ، وكان أمـرًا مقضيًا أن يتخـذ كل من عبـد الكريم الصـاوى ، وسيد زهير الثانـى خليـلاً لـه يعتز بصداقتـه ، فـلا شك أن كـلا منهما على شـاكلة الآخـــر ...

فى مساء أحد الأيـام - طُرِق باب منزل باهر عبـد الحميد بشدةٍ ، وإذ أنت تطالع هذا الطارق تقول من تـوك إنه يستغيث بمن بالدار ، أو لعل أحد الكـواسر يقفو أثـره ويريد التهـامه .. هرع بـاهر إلى البـاب ففتحه فوجد محمـد مصطفى شاخصًا بالباب متجهم الوجـه ، شاحب اللون ، لا ينبث ببنت شفة ، فإذا ببـاهر يفزع من رؤية صـديقه على هذا الحال ، فَسُرعـان ما أدخلـه وأجلسـه وجلس بجواره ، فلما هـدّأ من روعـه بعض الشىء سأله ما الخطب ؟ فقال محمد مصطفى والحسرة والألم يبدوان على وجهه : جـاءنى منذ قليـل والد سيد زهير ، كما جـاءتنى أم عبد الكـريم الصاوى وكل منهما يُمسك بخطاب فى يده ، وسرعان ما طلب كل منهما منى أن أقرأ المسطر بالخطاب ...

قاطع بـاهر صـديقه محمد وقـال له فى دهشـةٍ : « ولماذا جاءا إليكَ ؟ وماذا عن الخطابين ؟ ..

اعتدل محمـد فى جلسته وقـال وعلامـات الحزن ترتسـم على وجهه : جاءا إلىّ ليعلمنـانى أن كل من عبـد الكريم وسيـد قررا عـدم العودة إلى المنزل ، وترك الدراسة الجامعية بلا رجعة ...

أخذ باهر يقلب كفيه فى أسفٍ ثم قال : وماذا عن حال المسكين والد سيـد ؟ ومـاذا عن حـال المسكينة والـدة عبـد الكـريم لما قـرأ كل منهما مكتوب ولده ؟ .. قال محمد مصطفى : أمـا عن حال أم عبد الكريم فلا أستطيع أن أصفه لكَ ، فهـو بحق السماء أشبه بحال الخنسـاء لما فقدت أخاهـا صخر بل ويـزيد ، أمـا عن حال الـرجل فأنا فى حيرةٍ مـن أمره ،

وكأنه حضر إلىّ ليُشْهدنى على ما فعله ابنه لا أكثر من ذلك ، أما الذى شعرت به حياله أنه سعيد بهذا القرار الذى اتخذه ولده ، وكأن لسان حاله يقول : « فعل سيد خيرًا ، لقد وفر ، كفى أن أسمع عنه أنه حى يُرْزَق » ...

نظر باهر إلى محمد وقال : وماذا تفعل حيال هذه البلوى التى حطت على رأسك ؟ قال محمد والغصص يقطع صوته : إنى فى حيرةٍ من أمرى ؛ لذلك حضرت إليكَ لتنيب عنى فى هذه المهمة الشاقة ، فهما قد يسمعا لك ؛ ولكنهما لن يصغيا إلىّ البتة .. وانصرف الصديق على أمل أن يحُالف باهر التوفيق فى مسعاه ...

فى صباح اليوم التالى - شاهد باهر كلاً من عبد الكريم ، وسيد فاستوقفهما وقال لهما وهو يتصنع الابتسامة ولكنه فى الحقيقة يرثى حالهما ، ويدمى قلبه بين جنبيه من هول ما حدث منهما : « أستحلفكما بالله الذى بيده ملكوت كل شىء ، وبالصداقة التى تجمعُنا أن تعودا أدراجكما إلى المنزل رحمة بالوالدين » ...

عقب سيد زهير وقال والدمع يلتمع فى مقلتيه : « لمن أعود ؟ لوالدى البخيل ؟ قاطع باهر سيد فقال له فى عجلةٍ : « اللهم نعم » ...

قال سيد زهير مرة أخرى : « أوَلَيسَ الوالد البخيل الذى يترك ابنه الحر عبدًا ، يكون كالوالد الذى يسأله ابنه خبزًا فيعطيه حجرًا ؟ ...

نظر باهر إلى عبد الكريم الصاوى وقال له فى أسفٍ : « وأنت يا عبد الكريم ما قولك ؟ .. قال عبد الكريم معقبًا فى حدةٍ : « مات

قلبى فى داخلى ، والتهبت دموعى فى عينى بعدما رأيت والدى يجمع الأموال، ويعقد الصفقات ، ويغفل عمن دون ذلك ، فإذا بى أرى نفسى وكأننى لص سارق يأكل خبزه ثم يستتر بظلام الليل ... سكت عبد الكريم لحظات ثم قال مرة أخرى : « إن صراخ البائسين المتصاعد من جوانب الظلمة لا يسمعه الجالسون على العروش ، ونواح المحزونين لا تعيه آذان المتكلمين بتعاليمك » ...

ولا أُخفى عليكم أننى وقفت فى مكانى شاخصًا أنظر إليهما والدموع تراود أجفانى ، والشفقة تسحق قلبى لما رأيت سيد زهير يتنحى عنى بوجهه ويبكى بكاء ظامىء رأى ينبوع الماء العذب محاطًا بكواسر الناب ، فإذا به يرتمى على الأرض مترقبًا جازعًا ، وبصوتٍ مخنوق ترافقه التنهيدات الأليمة قال : « نعلم أننا نبحث عن النور فى الظلام ولن نجده بعدما فقدنا النصيحة ، وأَعَيُن الرُّقباء ونحن نعيش بينهم ، إذًا وجودنا ههنا هو الضياع ، ووجودنا معهم هو الضياع أيضًا » ...

لما فرغ سيد زهير من حديثه رأيت نفسى أحدق ما يقرب من الدقيقة فى الكون من حولى ، وكأن الكون هو البحر العميق الذى أخشى على الأصحاب منه ، وسرعان ما قلت لهما والشفقة تبدو على وجهى : « وهل هذا يعطيكما الحق فى أن يُدمرَ كل منكما نفسه ؟ فإذا بى أسمع أنكما تشربان الخمر ، وتلعبان الميسر ، وما خفىَ كان أعظم .. لا يا إخوانى عودا كما كنتما ، وصبرًا جميلاً ، حتى لا يقال عنكما أنكما عبيد الغباوة ،

وكما تعلمان أن الغباوة هى أشد اسودادًا من بشرة الزنوج ، وأكثر استسلامًا للحيف[1] والقساوة ...

صمت باهر لحظات وسرعان ما قال فى عجالةٍ وكأنه تذكر شيئًا على قدرٍ كبير من الأهمية : « ويحكما أنت وهو فقد غفلتما عن حقيقةٍ لا يختلج[2] عليها شك » ...

قال عبد الكريم وهو ينظر إلى سيد تارة ، وأخرى إلى باهر : وما هى هذه الحقيقة يا تُرى ؟ .. قال باهر بصوتٍ أجش والحزن يبدو على وجهه : أعلم أنكما فقدتما النصيحة ، وأَعَيُنُ الرُّقباء ولكن لماذا تصران على فقد العلم ، وأنتما تعلمان جيدًا أن بفقدكما العلم تصبحان كمسافر فى الصحراء بلا زاد وماء ، فإذا به يترقب الموت بين اللحظة والأخرى ، والأدهى من ذلك بل المثير للضحك أنكما تقومان بتشييد البناءات بمهارة فائقة ، هذه البناءات التى تتطاول فى عنان السماء وفى نفس الوقت تهدان وتُدمران أنفسكما بنفس المهارة ...

شعر باهر بالحزن والأسف يسريان فى جسده سريان الدم فى العروق ، كما شعر بأن الأرض تَميدُ تحت قدميه ؛ ولكنه عاد ادراجه حيث يقف محمد مصطفى الذى ما أن رأى باهر على هذا الحال حتى هز رأسه فى حسرةٍ ولبث هادئًا ، وكأن نفسه الكبيرة قد تنبأت وعلمت بما حدث قبل وقوعه ..

---

(١) الحيف : الظلم والقساوة .

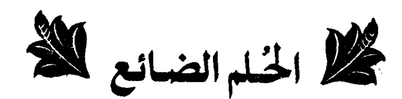
(٢) يختلج : يتنازع .

ربت محمد على كتف صـديقه باهر ثم نظـر كل منهما إلى الآخر وكأن لسان حـالهما يقول : « واحسرتاه غرق الصـديقان فى بحر الحياة ، بعـدما صور لهما عقليهما أن المال أعظم مـن العلم ولكن هيهات ، فـالحقيقة أن المال حظ ينقص ثم يـزيـد ، وظل ينحسر ثم يعـود ، أمـا العلم فهـو فى زيادة إلى يوم الدين ...

وانصرف باهـر ومحمد للـولوج[1] داخل إحـدى البنـاءات ، وقبل ولوجهما بقليلٍ هبت عاصفة ترابية شديـدة فأسرعا الخُطى لدخول البناية وهما ينظـران إلى الفضاء البعيـد فإذا بهما يُشَاهـدان كل من عبد الكـريم الصـاوى ، وسيد زهير يترنحـان كـالمخمـوران وهما يواجهـان الإعصـار الشديـد بلا مقـاومة ، وكأن العاصفـة أو التيار الغضُـوب قد حملهما إلى الأعماق .



(١) الولوج : الدخول .



الحُلم الضائع

كان ثم بيت من طابقين فى ميدان العباسية ، لا يخُطئه أحدًا من رجال ونساء الحى ، ولا مـن سكان الأحياء المجـاورة ، حتى طيور الحقـول هى الأخرى أضحت لا تخطىء فى الـورود إلى هذا المنزل ، فـإذا هى تأتى إليه فى البكور قبل الإقـلاع طلبًا للرزق ، وتعود إليه فى المسـاء وهى بطون قبل أن تخلد للنوم فى أعشـاشها الدافئة ... حتى أضحى هـذا المنزل مع مرور الأيام ، وتعاقب الليل والنهار مزارًا للطيور وبنى البشر ...

أما الطـابق الأول فيتكون من حـانوتين كبيرين يعلـو كل منها يـافطة كبيرة مكتوبًا على الأولى « بقـالة الصدق والأمانة » والثانية مكتوبًا عليها « جنتلمان ترزى للرجـال » .. وأما عن الطابق الثانى فهـو عبارة عن شقة سكنية لـرجل فى العقد السـادس من عمره يُـدعى « محمود العجمى » ، ويعمل ترزيًا ويملك هذا الحانوت الـذى يقع أسفل المنزل ، متزوجًا من امرأة فى العقـد الخامس من عمرهـا تُدعى « زبيـدة باهى عبـد الصمد » جميلة الـوجه كالقمر يـوم اكتماله ، نحيلة الجسم ، تظهر فجأة بمـلابسها البيضاء الحريريـة كأشعة قمر دخلت من النافذة ، أمـا صوتها فمنخفضًا عـذبًا حلـوًا تقطعـه التنهدات فينسكـب حين تتحدث من بين شفتيهـا القرمزيتين مثلما تتساقط قطرات الندى عن تيجان الزهور بمرور تموجات الهـــواء ...

ويا لـه من رباط مقـدس هذا ، ويـا له من حـب ذاك الذى جمع بين زبيدة وزوجها محمود والذى ما فتىء صوته يملأ أسماع الزمن ، حتى ترى نســاء الحى تملأ قلـوبهن الغيرة من هــذه المرأة المســالمة ، لجمالها ، أو بالأحـرى لكثرة حديث الرجـال عن جمالها الوضاء ، أما الـرجال فتراهم يسيرون سيرًا حثيثًا أمـام منزل زبيدة لعلهـم يرونها فتسعد قلـوبهم ، وتقر أعينهم برؤيتهـا ، ومن يدرى لعل كثـرة حديث الرجـال عنها هـو الذى جعل النساء يشعرن بهذه الغيرة أمام هذا الجمال الدافىء ...

كـانت زبيــدة تعيش بجـوار زوجهـا فى سلطـان مـن عِـزّة النفس ، فأضحت لا تـرى من الـرجال مـا يشغف قلبهـا غيره ، ولا تقـر عيناهـا بـالنظر إلى سـواه ، أمـا هو فأصبح لا يـرى من النسـاء مَنْ تمـاثلها رقـة وجمالاً ، فصـار قلبيهما مع الأيام فيـاضًـا بالعواطــف النبيـلة ، والميـول الخيّرة ، مطمئنًا بالرحمة والمودة والرأفة والعطف والحنان ...

وابتسم القدر ، واشرقت شمس الشموس بعد طول أُفول لما وهب الله للزوجين السعيدين غُلامًا ذكيًا بعـد طول سنين من عمر الزواج .. فكان أمرًا لا غـرابة فيه أن تـزداد أواصر المحبة بين محمود وزبيـدة ، فإذا بالأب يعمل ليلاً ونهارًا ليوفر لولده الحياة الكـريمة ، وخاصة أنه شعر مع مرور الأيام والسنـون أن قواه قد بـدأت تخور ، وبصره بدأ يضعف هـو الآخر ؛ لكنه كان لا يشغـل باله بهذا الذى حل بـه ، وخاصة أنه كـان يرى ولده يكبر وينمو أمام عينيه .. أما زبيـدة التى منحها الله جمال النفس مشفوعًا بجمال الجسـد فكانت لا تفتأ قيـد أُنملة عن مسـاعدة زوجهـا فى الليل

والنهار ، آنئذ لم يشعر الرجل بالخطر الداهم الذى ينتظره بعد قليل ، ولا بما ينسجه له القدر بالإبرة والخيط عندما تعلم منه الحياكة وهو فى غفلة من أمره ؛ لكنه كان دائمًا يشعر بالسعادة عندما ينظر ذات اليمين فيجد زوجته بجواره ، وعن يساره فيجد فلذة كبده والبشاشة تعلو وجهه .. لعل القدر كان أرحم منه على نفسه من نفسه ، أو لعله الاختبار لمعرفة ما إذا كان لمحمود شأوًا عظيمًا فى قلب زبيدة ، أم أنه الكلام المعسول الذى لا يعبر البتة عن مكنون القلب ، وخواطر العقل ؟ ...

ذات يوم زمهرير من أيام الشتاء القارص فَقَدَ محمود الزوج البار بصره بين زوجته التى فغر فاها من الدهشة واللوعة والحسرة ، وبين ابن يلهو ويلعب لأن عاقلته مازالت لا تعى ما يدور حوله بعد ، فإذا بالسرور يذهب تاركًا المنزل إلى حين ليحل محله الأحزان ، حتى يفعل الله أمرًا كان مفعولاً ...

طار الخبر أسرع من البرق إلى مسامع الجيران ، فاعتلت الفرحة والشماتة وجوه النساء ، حتى ترى بعضهن يقلن للبعض الآخر وكأنهن وقفن على سر خلود الأرض : سوف تدور عجلة الأيام من اليوم فصاعدًا ومع دورانها سوف نرى تقلب وجه زبيدة ، وتَمَرُّدها على زوجها الذى طالما ما أحرق عرق جبينه بين كفّى السنيورة حتى ذهب بصره وهو راضٍ ...

اقتربت من النسوة المتحدثات عجوز شمطاء تتوكأ على عصاها ، فنظرت نحوهن ، والحزن والأسف يعلوان وجهها المنقبض ، وسُرْعان

مـا قـالت لهن فى غصص[1] : ويحـكن أيتهـا المتشدقـات بمصـائب الأخريـات ، أبدلاً من الوقـوف بجوار جارتكن اليـوم فى مصابها الجلل ، أراكن تجتمعن فى عُجالة منكن ، وكأن بأيديكن إسعـاد البُنيّة وشقاؤها ؟ أتستطيع إحـداكن أن تدفع الخطـر عن نفسهـا أو عن غيرها ؟! تـوقفت العجوز عن الكلام وقالت مرة أخرى : فِيَم سكوتكن الآن ؟ تبًا لكُنَ يوم تقـول النـار « هل من مـزيـد » فِيَـم الغيرة وأنتن تعلمن أن المرأة التى يمنحهـا الإله جمال النفس مشفـوعًا بجمال الجسـد هى حقيقـة ظاهـرة غامضة نفهمها با لمحبة ونلمسها بالطهر ، وعندما نحاول وصفها بالكلام تختفى عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس ..

انصرفت العجـوز عن النســوة ، ولسـانها مـازال ينطق بكلماتٍ غير مفهومةٍ ، لعلها أرادت أن تعبر عن مقدار السخط والحزن الذى ألمّ بها لمّا سمعت مـا يُدمي القلب ، ويتطير منـه ثواب العقل ، أو لعلها قـالت : متى يكف الإنسان عن ذكـر أحوال الناس بالباطل ، ويُقبِـل بوجهه عن ذكر أحواله ، وهو يعلم أنه الأجدى له ؟ ..

ذات مساء جلس محمود العجمى مع زوجتـه زبيدة وقال لها بصوتٍ تتموج فى مقـاطعه معـانى اليأس والقنوط : « فى الغـد سوف نبحث عن مشترى يبتاع الحانـوت بمشتملاته ، فلم أعُـد فى حاجـة إليه ، ولا سبيل أمامنا للإنفاق على معاشنا إلا هذا الطريق ، فما قولكِ ؟ ...

---

(١) غصص : ضيق .

قرعت[1] زبيدة على صدرها وهى تبكى ، ثم تأوهت وصرخت بلهفةٍ وتـوجع ، ثم راحت تنظر إلى الحبيب من وراء أجفـان مكحـولة بـالرقـة والانعطـاف ، مضمخـة بـالحزن والشفقـة ثم قـالت لـه : لن نبيع هـذا الحانـوت الذى شـاهد زهـرة شبـابك ؛ بل نغلقه إلى حين يَـرُد الله عليك بصرك ، آنئذ تسعد برؤية جدرانه ، وتقر عيناك بمحتوياته ...

عقَّب محمود على حديث زوجته بصـوت تخاله أنينًا صادراً من أعماق الأرض فقال لها : وماذا عن مصدر الرزق الذى فقـدناه كما ترين ، عندما كُف بصرى وأضحيت حبيـس الجدران ، لا أقـوى على الحركـة إلا من خلالك ؟ ..

ربتت زبيدة على كتف زوجها فى رفق ، ونجيع الدعاء ينهل بغزارة من صـدرها البلـورى ، وسرُعان مـا قـالت له : فى الغـد سوف أبتـاع بعض الأقمشـة الصـوفيـة وأدور بها على عملائك ، وعنـدمـا يشترونها ، نـربح ونـدخر مـا يكفينا ، وقتئـذ نُجْرى العمليـة الجراحية فيعـود إليك بصرك ، فترانى كما أراك ، وتسعد بلهو ولدك « خـالد » وهو يحوم ويدور ويتمسح بجسدك ، وأنت تفسح له الطريق عن طيب خاطر .

قـال الرجل معقبًـا : ولكن كيف تواجهين السـوق والعملاء بمفـردك وأنت ربة الصـون والعفاف ، وليس لك من الخبرة لا الكثير ولا القليل ؟ سكت محمود برهة ثم قال مرة أخرى : إنما أخشى عليكِ من جمالك ، أن يصيبه أعين ما لا ضمير لهم عندما يـلاحقونكِ فى كل مكان ، ويشهرون

---

(١) قرعت : ضربت .

سهـام أعينهم وأنت تسيرين أمامهم ، فـلا هم يرحمون عجـزى ، ولا هم يكفـون عن النظـر إليك وإيـذائك ... لما ألحت زبيـدة على زوجهـا فى طلبها ، وافق الـرجل على مضض[1] وهو لا يـدرى : أيستطيع أن يصبر على فراقهـا لسويعات ، أم سـوف يزداد همه لخروجها إلى العمل ومكـوثه هو فى المنزل وحيدًا حبيس الجدران !!.

ومرت الأيام ، وتعاقب الليل والنهار وزبيـدة لا تركن إلى الراحة يومًا أو بعض يوم ، ولا تفتأ عينـاها أن تنظر إلا إلى الـرسالـة التى خرجت من أجلها ؛ وبالرغم من كثرة الصعاب والأهوال التى كانت تحيق بها من كل جـانب ، والشبـاك التـى كـانت تنصب لها مـن قِبَلْ رجـال يضربـون بالفضيلة عَرض الحائط .. إلا أنها دائمًا ما كانت تُـحـدث نفسها قائلة : مـا أيسر اجتيـاز هذه الصعـاب والأهـوال فى سبيل تحقيق حُلمى فى أن يعود بصر زوجى إليه مرة أخرى بعد طول أُفول ، فأما الأهوال والصعاب هى أشبه بـالفقاعة التى تنتفش فوق سطح الماء ، وسرُعـان ما تختفى عن الأنظار ، وما أهون هذه الشبـاك التى نُسجت للوقوع بى فى حبالها ، فهى أهون من نسيـج العنكبوت ، حتى وإن صُنعت من الفـولاذ فما أهونها فى نظـرى ...

فى أحد الأيـام ذهبت زبيـدة إلى أحد العملاء الأثـرياء وكـان يعمل جواهرجيًا لتعرض عليه بعض الأقمشـة ، فإذا بالرجل ينظر إليها بشغفٍ ويقول لها بصوتٍ أجش : فلتـدعى عرضك للأقمشة جـانبًا ، ولتصغى

---

(١) مضض : وافق الرجل وهو كاره ومتألم .

جيـدًا إلى عرضى أنـا عليك ، فإنـه يحمل لكِ البشرى ، ويَـزُف إلى قلبك السعادة والهناء ...

تهلل وجـه زبيدة مـن الفرح ، وإذا بها تنظـر إلى المتحـدث قائلـةً فى فرحـةٍ : تُرى مـا هى البشرى التى تحملهـا إلىّ وفيهـا إسعادى كما تـزعم الآن ؟

اعتـدل الـرجل فى جلستـه وقـال والبشاشـة تعلـو وجهـه : فلتتركين زوجك ، وتطلبين منــه أن يُسرحك بمعـروف ، وإذا سـألك عن السبب فقـولى له إنها مشيئـة القـدر ، ثم تأتين إلىّ فأتـزوجك ، وأنت كما تعلمين عنى أنى جواهـرجيًا أُقدر الـذهب والماس فى سهولـةٍ ويسر ، فلن يكون من الصعب علىّ عندما أقترن بك أن أقدر هذا الجمال الدافىء ...

هبت زبيدة واقفةً وهى مذعورة ، وسرعان ما تذكرت زوجها وولدها ، فإذا بـالحب قـد اعتنق لسـانها فتكلمت ، ومـزق أجفـانها فبكت ، وفتح حنجرتها فتنهـدت وقالت للمتحدث فى حـدةٍ وصدرهـا يعلو ويهبط من الغيظ : أى تعاليم دين جعلتكم تسيرون كـالذئاب بين الخراف ، ليست مشيئة القدر كما زعمت الآن بأن أقطع جناحى بيدى ، وأرتمى على الرماد حـاجبة رأسى بسـاعدى ، سـاكبة حشـاشتى من أجفانى قـائلة : هـذا نصيبى من الحياة !!

صمتت زبيدة لحظات ، ثم نظرت إلى الرجل بازدراء وقالت له : اليوم دنيا ، وغدًا آخـرة ، والقيامة ميعاد ، والرب هـو الذى يحكم فيها ، فكيف إذا سألنى ربى عما فعلته بزوجى هذا العـاجز الذى ينتظرنى الآن لأؤنس

وحدته ، ولا أطمع أنا من دنياى هذه إلا أن أَرُدَّ إليه الجميل عندما أدخر من النقود ما يكفى للعملية التى تَرُد إليه بصره .. انصرفت زبيدة تاركةً الرجل بعدما شاهدته قد فغر فاه من الدهشة لعله سمع بأذنيه ما لم يكن يتوقعه ، أو لعل ضميره قد أخذ يوخزه[1] على ما بدر منه ، ومن يدرى لعل شيطانه قد صور له أنها سوف تعود إليه عندما لا تستطيع أن تقاوم إغراء الأصفر الرنان ...

لم تتوان زبيدة فى يوم من الأيام عن العمل حتى تورمت قدماها من كثرة السير .

ذات يوم شعرت زبيدة بالإعياء الشديد فولجت داخل إحدى الحدائق العامة لتستريح ، وتلتقط أنفاسها ، وكان الليل فى تلك الليلة قد أرخى سدوله ..

أخذت زبيدة تحدث نفسها فيما آل إليه حالها فإذا بها تتنهد وتقول والغصص يقطع صوتها : إن صراخ البائسين المتصاعد من جوانب هذه الظلمة لا يسمعه الجالسون على الأرائك ، ونواح المحزونين لا تعيه آذان المتكلمين فى الأسواق والشوارع ، فهم لا يعلمون كم عانيت وتحملت ثقل الصعاب حتى يكتمل هذا المبلغ الذى طالما حلمت به وتحقق حُلمى اليوم فقط باكتماله ، حتى أنى لأرجو أن ينجلى هذا المساء مسرعًا حتى ينبلج نور الصبح فأذهب أنا وزوجى الحبيب إلى المستشفى ، وهناك تُجْرَى له العملية فيعود إليه بصره ، وتعود معه السعادة والسرور ...

---

(١) يوخزه : يؤنبه – يلومه .

لم تـدر زبيـدة كم مر من الـوقت وهى على هـذا الحال ، فكل الـذى تتـذكـره أنها سعيدة بـاكتمال مبلغ العمليـة ، فكم تمنت أن تجفف دمعـة واحدة أهرقت[1] من عينى زوجها بعـدما فقد بصره ، وحُجِبْ عنــه نور الدنيا ...

اعتدلـت المرأة فى جلستها وأخـذت تنظر إلى صفحـة السماء متضرعةً فقالت وهى تخفى دمعة حزينـة : أيها العدل الخفى الكامن من وراء هذا الليل ، أنت السامع عـويل نفسى المودعة ، ونـداء قلبى المتهامل ، منك وحـدك يـا الله أطلب ، وإليك أتضرع ، مـا رحمنى وارع ، بيمنـاك نفسى وزوجى وولدى ...

لما طــال غيـاب زبيـدة ، جن جنـون محمود ، وشعـر أن قلبـه مـات بـداخله ، والتهـبت دموعـه فى عينـه ، فهب من مكـانه وأخـذ يسير فى الشقة ، فيصطدم بالأثاث وهو لا يبـالى ، فلما أخذ الشيطان يلعب برأسه ظن أنه الفراق ، وأن المنية قد اختطفتها وهى بعيدة عنه ...

رقد محمود فى فراشه وهو متململ[2]، وكأن فراشه قـد بُذر بالهراس ، وما هـو بالهراس ؛ ولكنه الحب الـذى جمع بينه وبين زبيـدة ... وبينما هو على هـذا الحال ، سمع وكأن صوتًـا يحدثـه ، فتنبه لـه فإذا هو الشيطـان المتحدث ، والـرجل لا يدرى أنـه هو ، فلما أرهف محمـود سمعًا قـال له الشيطـان بصوتٍ خفيض : مـا أتعس الـرجل الذى يحب امـرأة من بين

---

(1) أهرقت : صُبت أو نزلت .
(2) متململ : يتقلب على فراشه متألمًا .

النســاء ، ويتخـذها رفيقـة لحياته ، ويهرق على قـدميه عـرق جبينه ، ودم قلبه ، ويضع بين كفيهـا ثمار أتعابه وغلة اجتهاده ، ثم يتتبـه فجأة فيجد قلبها الذى حـاول ابتياعه بمجاهـدة الأيام وسهر الليالى قـد أُعطى مجانًا لرجل آخر ليتمتع بمكنوناته ويسعد بسرائر محبته ...

سمع محمـود هذه الكلمات فـارتعدت فـرائصه خـوفًا ، وأخـذ عقله يتأرجح بين النفى والتصـديق ، وسرُعان مـا وضع يـداه على عينيه وكأنـه أراد أن يقول لنفسه : كيف لى أن أنفى مـا سمعته الآن وأنا الأعمى الذى فقد بصره .. رأى الشيطان أن فـرصته مواتيه ليزلـزل كيان المسكين فتقدم نحوه وقـال له مرة أخـرى : ولكن ما قولك يـا مسكين : إذا كان نصيبك من الوجـود طائرًا تحبـه وتطعمه حبـات قلبك ، وتسقيه نـور أحداقك ، وتجعل ضلـوعك لـه قفصًـا ، ومهجتك لـه عشًـا ؛ وبينما أنت تنظـر إلى طائرك ، وتُغمر ريشه بشعاع نفسك ، إذا بـه قد فرّ من بين يديك ، وطار حتى حلق فوق السحاب ، ثم هبط نحـو قفص آخر ، وما من سبيل إلى رجـوعـه .. فماذا تفعل ؟ .. لمـا رأى الشيطان أن الـرجل فغـر فـاه من الدهشة ، وأن روحه تكاد تكون قـد بلغت الحلقوم ، تركه يواجه مصيره ، وانصرف وهو يَسخّر منه ...

شعر محمود أن قلبه يكاد أن يتـوقف بين جنبيه ، فالتقط أنفاسه فى ألم بعدما اعتدل فى جلسته وهو كظيم .. لكن سرعان ما أخذ صوت ضميره يحدثه فقال له فى تؤدة : ويحكَ يا رجل من هذا الهراء ، كيف لَكَ أن تُؤيد هـذا الـزعم وأنت تعلـم أن زبيـدة لا يشغف قلبهـا بغيرك ؟ .. ولا تقـر عيناها إلا بالنظر إليك ، ولا تجد راحة إلا فى الجلوس بجوارك ؟

فتحت زبيدة باب الشقة وولجت إلى الداخل وهى فى غاية السعادة ، وكيف لا وهى تريد أن تزف إليه هذا الخبر السعيد الذى طالما حلمت به ووعدته إياه ... فلما وقع بصرها عليه ، وعلى ولدها الذى يرقد بجواره ظنت أن زوجها غلبه النعاس لما تأخرت هى بالخارج ، فراح فى سُبات عميق وهو لا يدرى ...

أقبلت زبيدة على ولدها فقبلته فى حنان ، ثم أقبلت على زوجها فقبلته هو الآخر من محياه ، وراحت تنظر إليه ، فلما حدثتها نفسها أن توقظه لتزف إليه الخبر السعيد ، أخذتها الشفقة به ، فتركته يسعد بنومه وسارت عدة خطوات ، ثم عادت إليه وأخذت إحدى كفيه ورفعتها إلى أعلى تريد أن تقبلها ، فإذا بذراع الرجل تهوى بشدة على الفراش .. تأوهت زبيدة وراحت تُقرع صدرها ، وهى تحاول أن تصرخ ولو صرخة واحدة تعبر بها عن مقدار الحزن والجزع بفقدها الحبيب الغالى ؛ ولكن احتبس صوتها فى صدرها ولم يطاوعها على الخروج من فِيها .. هرعت زبيدة وهى لا تدرى إلى النقود فأحضرتها ودون أن تشعر وجدت نفسها تنثرها على جثمان زوجها والدموع تراود أجفانها ، والشفقة تسحق قلبها ، وإذا بها تقول وهى تضع رأسها على صدره بصوت تتموج فى مقاطعه معانى القنوط واليأس : هل أنت راضيًا عنى يا محمود ، كما أنا راضية عنك ؟ ...

حملت زبيدة طفلها وخرجت من باب المنزل وهى لا تدرى إلى أين تذهب ، وقد غاب الزوج والصديق عن دنياها ، وها هى تحمل امتداد الحبيب بين يديها والليل قد أرخى سدوله ، والظلمة قد عمت البطاح .







وصية ميت

توارى النهار وقَدُم الليل وسرُعان ما أرخى سدوله ، وظهرت النجوم المتلألئة فى ذلك الفضاء الرحيب المظلم لتبعث الحركة والأمل والسرور فى النفوس المترقبة لقدومه ...

وإذا بالمصابيح الملونة تتوهج وتسطع لتضىء أحد شوارع حى الجمالية الذى يجمع بين عبق التاريخ التليد ، وصراع الحاضر الزائف الملوث بالضوضاء ، وإذا بدقات الطبول تعلو ، وإذا بزغاريد النساء تعلو هى الأخرى حتى تكاد أن تلامس عنان السماء ...

وأنت إذ تطالع وجوه المارة عن قربٍ ، وأمعنت فى النظر إليهم ، لاتسعت عيناك وكبرت ، ولفغر فاك من الدهشة حين ترى هؤلاء الفتيات والنساء يتحلون بأزهى الثياب وأجملها ، ويتبخترن فى مشيتهن وكأنهن من فصيلة الغزلان ولسن من بنات حواء ، وكأنهن ذاهبات إلى مسابقة لعروض الأزياء ، أو لعلهن ذاهبات لعرض جمالهن ومحاسنهن فى مسابقة جميلات العالم ... وعلى الجانب الآخر يقف الشباب وهم يستامرون ويتلفتون ذات اليمين وذات الشمال وهم يترقبون فى شغفٍ قدوم العروسان .. ومن يدرى لعلهم ينظرون إلى تلك الفتيات الجميلات وهن يسرن الهوينا لعل أحدهم يفوز بإحداهن فتصبح له زوجة فى أحد

الأيام ، وتقاسمه أفـراحه وأحزانه بعدما يهيم بها وتهيـم به ، وقتئذ تتحرك المشاعر الجياشة فى القلوب الفياضة التى يَغمرها الحب ...

نظر أحد الشبان إلى زملائه فوجد البشاشة تعلو وجوههم ، فلما تذكر حبيس الجدران عبس وجهـه ، وأحس بأن قلبه يتحـرك بين جنبيه ، وإذا بـه دون أن يشعر يـرفع بصره إلى أعلى ، ويحدق لحظـات فى تلك النافـذة المرتجة التى ينبعث منها ضوء خافت .. ودون أن يدرى وجد نفسه يتحرك تـاركًا الأصـدقاء مـن غير بادرةٍ أو استئـذان ؛ لعله رأى خطـرًا وأراد أن يصل إليه قبل أن يتطاير منه الشرر ، أو ربما تذكر شيئًا على قدرٍ كبير من الأهمية ...

أخذ « اسماعيل الجبر » يصعـد سلالم المنزل فى سرعةٍ فـائقة على غير عادته اليـومية ، فلما وصل إلى باب إحدى الشقـق وجده مرتجًا[1] فدفعه بقوةٍ وولج[2] إلى الـداخل .. وما هى إلا بـرهـةٍ أو تكاد وكـان اسماعيل يفتح باب إحدى الحجرات ويدخل وهو يلهث ، وعيناه مثبتتان على هذا المقعد المجاور للنافذة ...

اقترب اسماعيل من حبيس الجدران وهو ينظر إليه نظرة متأسف أرته الذكرى رسـوم أيام جميلة ثم حجبتها ، وهـا هو يشعر بالغِصـة لما شاهد فـوق رأس الجالس هـذا السراج الضعيف الذى يبعث أشعتـه الصفـراء الضئيلة إلى قلب الظلمة بالحجرة مثلما تبعـث الصلاة أشباح التعزية إلى

(١) مرتجًا : متحركًا ومهتزًا .
(٢) ولج : دخل .

كبد الفقير المرمل الحزين ... فلما وقف قباله ربت على كتفه فى حنان ثم قال له : فِيّم جلوسك ههنا ؟ ورجال ونساء وشباب الحى يقفون أمام منزل العروس وآذانهم تتسّمع ، وعيونهم تترقب قدوم العروسين ، حتى والدينا فضلا الانتظار على قارعة الطريق لتهنئة العروسين ، ومرت اللحظات بطيئة متثاقلة والجالس لم يجب ببنت شفة على السائل ...

لم يتطرق اليأس إلى قلب اسماعيل قيد أُنملة ، وكيف ؟ وهو يتحدث مع شقيقه الأصغر الذى يحبه .. سرُعان ما أخذ الأخ الأكبر يحاور أخوه الأصغر مرة أخرى فقال له : «أنسيت أن المحتفى به اليوم هو «مصطفى» شقيق « عبلة » أو عبل كما تسميها ؟ فلماذا إذًا تدع غيرك فى هذا اليوم السعيد ينظر إليها ؟ آنئذ ربما تفقد الأمل فى عودتك إليها ، ساعتئذ لم تجد سبيلاً أمامها إلا أن تشغف بحب الناظر إليها بعدما تتنحى بوجهها عنك ، كما تنحيت أنت عن دراستك الجامعية هذا العام ، وأنت الذى كنت على مشارف التخرج ؛ ولكنك فضلت العدوٌ وراء الوهم الزائف وتركت ما هو خير وأبقى .. والآن قم يا أخى فأحلق ذقنك بالموسى ، واستبدل ثيابك هذه الرِثة[1] بملابسك الزاهية ، وهيا معى إلى عبل وإلى راحة القلب والنفس ، ولتطرح وساوس الشيطان جانبًا حتى لا تخسر نفسك والمحيطين بك فى غفلةٍ من الزمن ..

هب « حسام الجبر » من جلسته ثائرًا غاضبًا وقال لشقيقه الأكبر فى ثورة : « دعنى وشأنى فإننى أرى الكنز على مقربةٍ منى ، فإذا بى أراه فى

(١) الرِثة : البالية .

رقـدتى ، كما أراه فى يقظتى ؛ ولن تستطيع أنـت وأبى وأمى أن تجعلـوننى أنصرف عن التفكير فيه بعدما هان علّى العلم والحبيبة فى سبيل الحصول عليـــه ...

تلمعت العبرات فى عينى اسماعيل ، وسرُعان ما استـدار بوجهه نحو الحائط ليخفى دمعـة محرقة استقطـرتها الشفقـة من أجفانـه ، فلما تمالك نفسـه قليلاً قـال لأخيـه والغصص يقطع صـوته : « أستحلفك بأفـراح قلبك وأوجـاع قلبى أن ترحم والـداك ، ولا تدع راحة قلبك تفـر من بين جنبيك ، فإن الـرجل إذا أضاع راحـة قلبه فأين يجدهـا ؟ وبم يستعيض عنهـا ؟ وقتئذ يمـد الموت يـده إليه ويصفعـه بشـدة فيتوجع ؛ ولن يمـر عليك يـوم وليلة حتى تشعـر بملامس أصابـع الحياة ، فتبتسم سـاعتئذ وتفرح ، فى الوقت نفسه يأتى إليك الدهر على حين غفلةٍ ، ويحدق إليك بأعين مستـديـرة مخيفـــة ، ثم يقبض على عنقك بأظـافــر من حـديـد ، ويطرحك أرضًا بقسـاوةٍ على التراب ثم يدوسك بأقدامـه الحديدية ، وفى النهاية يذهب ضاحكًا ساخرًا منك ...

سكت اسماعيل هنيهة ثم قـال مرة أخرى : « أنت لا تزيـد فى نظرى عن تلك « الفلاحـة » التى كانت تسير وهى تنظـر إلى موضع قـدميها ، وتحمل فـوق رأسهـا سلة مملـوءة بـالبيض ، فلما أخـذت تحلم بهذا الحلم الذى أضحـت من خلالـه ثريـة تعثرت قـدميها فى حجـرٍ ، فلما فقدت رأسمالها المتمثـل فى البيض تنبهت وادركـت بعقلهـا أن السماء لا تمطـر المن والسلـوى ، أو لعلها قـالت فى نفسهـا : إن السماء لا تمطر الـذهب والفضة ...

وانصرف اسماعيل تاركاً شقيقه حســام ، الذى فضل أن يكون منفردًا عن الناس المغتبطين انفراد الطائر الجريح عن سربه ...

أما حسام الجبر فكان كل من ينظر إليه فى طفـولته يتوسم فيه النجابة والنبـوغ والطموح ، فهـو يختلف عن أتـرابـه فى الفهم والسلوك والـوعى والإدراك ؛ حتى ترى أن تصرفاته كانت تبدو أكبر من سنه ، وأفكاره أكثر نضجًا من أفكار الـذين يقاربونه فى العمر ، ويماثلـونه فى النشأة ، فكان أمرًا لا غرابة فيه أن يشهد له الأهل والجيران أنه سيد الأطفال وزعيمهم ، كما شهد له زملاؤه فى الجامعة أنه أستاذ الغد ..

ومرت الشهـور والسنون ، وتعاقب الليل والنهار ومـازال حسام الجبر يسير فى طريق النجاح قُـدمًا سيرًا حثيثًا بخُطى ثابتـة ، لا ينظر إلى الوراء طرفة عين كيلا تتعثر قدماه .. إذًا ماذا فعلت الأيام بهذا الشاب الطموح ونحن نعلم أن الحياة لا تسير البتـة على وتيرة واحدة ؟ فهى أشبـه بعجلةٍ تدور ونحن ندور معها ، أو لعلها البحر الهائج بأمواجه العاتية ...

فجأة وبـدون سابق إنذار انقطـع حسام عن الجامعة ، وهجـر العلم على حبـه إياه ، وهجـر عبل على حبـه إياهـا ... وإذا بـه يفضل أن يقبع بجوار نافـذة حجرته ينظر من خلالها بعيون زائغـة ، وعقل شارد ، وكأنه النسر الجائع ينظر من عليائه يترقب ويتحين لحظـة الانقضاض والوثوب على الفـريسـة ، أو لعلـه هـذا الإنســان الـذى ارتضى أن يعيش حبيس الجدران مستسلماً لغبـاوتـه تـارة ، وأخرى مستسلمًا لـوسـاوس الشيطـان استسلام الأعمى إلى قـائده الأعمى ، فكان أمرًا لا غرابـة فيه أن يعشش

الشيطان فى تلافيف رأس الشاب الذى أخذ يبحث عن النور فى الظلام، ويترقب خروج الماء من بين الصخرة عندما صور له عقله أن يعيش عيشة الجاهلية الأولى ، ويركن إلى العزلة والخروج إلى الحياة ، ويتقوقع بين الجدران حتى يأتى اليوم الذى يعثر فيه على الكنز ، آنئذ يتبدل حاله من العبوس إلى الفرحة ، من العزلة إلى الخروج للحياة بثوبه الجديد ... ومن الأمور التى تتطاول لها الأعناق ، وتتسع لها حدقات العيون أن الأهل والجيران ظنوا أن ما آل إليه حال حسام أنه أضحى من الزاهدين الذين يعطون للدنيا ظهورهم ويرتضون منها بالقليل طمعًا فى الآخرة ... وما هو بالزاهد فى الدنيا ؛ لكنه المحب لها ، وللمال الزائل ، فإذا هو يترك الحقيقة الملموسة والمرئية ويعدُو وراء السراب ...

ذات يوم قَدُم الأب بصحبة ولده اسماعيل وعبل فى محاولة منهم للحديث مع حسام أو بالأحرى مع حبيس الجدران المتطلع للوهم الزائف ، فلما وقفوا أمامه أخذوا ينظرون إليه بشفقةٍ لما آل إليه حاله ، فإذا هو يتنحى ببصره عنهم .. لم يطل المقام كثيرًا على هذا الصمت الرهيب ، فسُرعان ما شقت عبلة السكون وبادرت حسام قائلة والبشاشة تعلو وجهها : « ما لى أراك تدير بظهرك عنى وكأنك لا ترغب فى وجودى ههنا ؟ وكيف تزعم أن السراب يصبح ماءً ، وأنت تعلم أن السراب لن يكون ماءً ، وإذا بك تفضله عنى حتى أصبحت لا ترى إلا إياه ، أما أنا فلا أرى غيرك حتى الآن ؟ ...

هب حسام الجبر من جلسته وسار فى الحجرة مغاضبًا وكأنه النمر يتجول فى قفصه الحديدى ، ثم التفت إلى عبلة وقال لها فى حدةٍ : « المال هو أغلى شىء فى الوجود ، به يسود الإنسان ويتقدم ، هو السؤدد ، هو العز والفخار ...

شهقت عبلة عندما سمعت هذه الكلمات وارتعشت متوجعة كمن أدرك سرًا هائلاً ، وسرعان ما قالت بصوت المنازع القانط[1] الذى أتلفته الظُلمة : « سامحك الله يا من كنت حبيبى ، والآن سوف أدعك لحلمك وللأيام يفعلان بك ما يحلو لهما ، ولتعلم أننى لا أحب أن تكون عبدًا تعسًا متصاغرًا إلى نهاية الحياة ، والآن اذهب عنى فإنى لا أكرهك ...

تقدم الأب نحو الابن والشرر يتطاير من عينيه ، وصدره يعلو ويهبط من شدة الغيظ وقال له بصوتٍ أجش : « هذا هو شقيقك اسماعيل الذى أكرم نفسه حين أغناها عن سؤال اللئيم ، فإذا هو يُقدِمُ على الحياة بعقله وساعديه لأنه يدرك أنه بهاتان يسود الإنسان العالم .. أما أنت فلم يبق لك من ذلك الحلم الجميل الذى تعيشه هذه الأيام بلا وعى سوى تذكارات موجعة ترفرف كالأجنحة غير المنظورة حول رأسك ، مثيرة تنهيدات الأسى فى أعماق صدرك ، مستقطرة دموع اليأس والأسف فى أجفانك ... وانصرف الوالد والشقيق على أمل أن يعى الحالم الحقيقة فيخرج من دائرة الخرافات والزعبيلات التى يحيط نفسه بها إحاطة السوار بالمعصم ...

---

(١) القانط : اليائس .

ذات صباح خرج حسام الجبر من المنزل وهو لا يعلم إلى أين يذهب ، ولا إلى أين تسوقه قدميه ولكنه خرج لما شعر بذلك ... بعد قليل عاد حسام إلى المنزل وهو متهلل الوجه مسرور ، وهو يحمل حقيبة كبيرة يبدو عليها آثار الغبار والتراب ... دق حسام باب الشقة بشدة فلما فُتح له وشاهد والداه وشقيقه قال لهما فى فرحةٍ : « ها هو الكنز داخل الحقيبة ، لقد وجدته أخيرًا فى أحد الأماكن المهجورة البعيدة عن الحى ، لقد تحققت آمالى وأحلامى ، وداعًا للفقر ، ومرحبًا بالأبراج والأفراح من اليوم فصاعدًا ...

دخل حسام الجبر حجرته وهو مختالاً فخورًا ، ومن ورائه والديه وشقيقه اسماعيل الذين فضلوا أن يقفوه(*) ليقفوا على حقيقة ما بداخل الحقيبة ...

انكب حسام على الحقيبة ليفتحها وعيناه تتسع وتكبر ، أما قلبه فازداد خفقانه من شدة الفرحة ... فتح حسام الحقيبة فى وجود أسرته ، فإذا هى خاوية تمامًا من أوراق البنكنوت ومن الذهب والفضة كما زعم الشاب الحالم .. فكل ما فيها هو عبارة عن : قَدوم ، وأزميل ، وحبل ، وبعض القطع الخشبية غير المصنعة ، وورقة مسطرة بها بعض الكلمات حتى نهايتها ...

بدت علامات الدهشة والشفقة تسحق قلوب الحاضرين إشفاقًا على المسكين الذى أخذ ينظر بعيون زائغة كالمجنون إلى والديه وشقيقه تارة ،

(*) يقفوه : يتتبعوا أثره .

وأخـرى إلى محتويـات الحقيبـة والدمـوع تستفـرغ من عينيه بشـدة وكأنها السيـل العَرِمْ ... وبصـوتٍ عميـقٍ جارح خارج من صمـيم كبده قال : « نصيبك يا نفسى ظلمة القبر ، فلا تطمعى بـالنور » ، وسُـرعان ما أخذ الورقة فطواها وألقى بها أرضًا فى غضبٍ ...

هدأت ثائرة حسام الجبر قليلاً فقام إلى الـورقة فأحضرها وفتحها ليقرأ ما فيهـا ، فإذا هى عبارة عن « وصية من ميت » تقـول : أخى الإنسان فى كل مكان من بقاع المعمورة ، ما لى أراك تجعل المال هو كل همك فى هذه الحيـاة حتى أضحى هـو شاغلك الـوحيـد ، من أجلـه تبطش ، وتقتل ، وتســفك الـدمـاء ، وتنسى الأحبـاب ، ألا تعلم أن المال حظ ينقص ثم يزيد ، وظِل ينحسر ثم يعود ؛ لذا فلا تجعل الشيطان يصـور لك السراب مـاءًا ، آنئذ ودون أن تدرى تجد نفسك ترضخ للـوهم ، وترضى بتفاهات الأمانى ، بعدما يصبح ماؤك غورًا ، وقلبك كالريشة يداعبها الريح يمينًا وشمالاً ، ولتعلم أنه بـالعلم والعمل يسود الإنسـان على غيره ويضحى ذا شأن ... أما إذا ركنت إلى الراحة والتخاذل فسوف تبقى تسارع عواطفك وميـول نفسك حتى تتغلب عليـك ، آنئـذ يقـودك الشيطـان مثلما يقـود البصير ضريـرًا أعمـى ... وقتئــذ تُـدرك بعــاقلتك قــول سيـد الأولين والآخرين - سيدنا محمد « ﷺ » : لأن يأخذ أحدكم أحبلة (جمع حبل) ثم يأتى الجبل ، فيأتى بحـزمةٍ من حطبٍ على ظهـره فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خيرًا له من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه ...

وضع حسام الجبر الورقة جانبًا وخرج من الحجرة مسرعًا ، فلما قرأها الوالدان والشقيق اطمأنت قلوبهم ، وخرجوا من الحجرة وهم يترقبون قدوم الابن ...

بعد قليل خرج عليهم حسام وهو فى زينته ، وقد حلق ذقنه وشاربه بالموس ، وارتدى أزهى الثياب ، والبشاشة تعلو وجهه وهو يتجه للخروج من المنزل ... فلما سألوه إلى أين هو ذاهب ؟ قال : إلى الجامعة ، فقد أخطأ حسام الجبر ، وأصاب الميت ... فلما رأى السعادة تعلو الوجوه توقف عن الحديث لحظات ثم قال مرة أخرى : بالأمس افتقدت «عبل» عندما زُفت إلى غيرى ، واليوم لا أحب أن أخسر العلم والعمل ، فمن خسرهما فقد خسر دنياه ، ومن خسر دنياه فقد خسر آخرته ، وأنا لا أحب أن أكون من الخاسرين ...

وخرج حسام الجبر من المنزل لضوء الشمس وهو فاتحًا ذراعيه للدنيا ، مبتسمًا بعد طول عبوس .





صرخة الحياة

قَدُم الشتاء بثلوجه وعواصفه ، وخلت الحقول والأودية ، اللهم إلا من الغربان الناعبة والأشجار العارية .. وابتدأت العواصف فى قرية « الشندويلى » تُصفِّر وتتسارع ملعلعة من أعالى الجبال نحو المنخفضات فترتعش لهولها الأشجار ، وتتململ أمامها الأكواخ والدور البسيطة ذات الطابق الواحد ...

وأنت إذ تطالع هذا المنزل القائم بين هذه الأكواخ وتلك الدور البسيطة التى يقطُن بداخلها هؤلاء الفلاحون المرملون ، لقلت من توك : « إنه يشابه الجبار بين الأقزام ، وإن صاحبه لابد وأنه يعيش عيشة مترفة ممتازة عن معيشة الآخرين بميزة السعة عن الفوز ، وأخلاقه لابد وأنها تختلف عن أخلاق سكان القرية اختلاف القوة عن الضعف ، وإن قُدر لك وسمعت بعضًا من أخباره لعرفت من الوهلة الأولى أنه سخيًا كريمًا جوادًا يهب الدرهم والدينار وكأنه غضبان عليهما ، وما هو بالغضبان عليهما ولكنه الجود الذى أرسى قواعده والده فأضحى يسرى فى عروقه منذ نعومة الأظفار ...

كان « مسعود عبد الباسط الشندويلى » الذى تجاوز العقد الثالث من عمره يعيش بمفرده بعد رحيل والديه عن دنيا البشر ، لا شقيق له

ولا شقيقة يؤنسا وحدته ، وبالرغم من أنه يملك عشرات الأفدنة ، وطاحونة ، وبستان تُدر عليه الربح الوفير إلا أنه يشعر بالوحدة القاسية ، وكأنه عصفورًا جيء به من سربه فى حين غفلةٍ منه ووضع بمفرده فى قفص حديدى ، أو لعله السائر فى الصحراء ولا يعرف دروبها ومسالكها ...

فكر مسعود أن يتزوج بإحدى بنات القرية الحسناوات ليخرج من وحدته هذه التى قصمت ظهره ؛ وليملأ هذا المنزل الكبير بالذكور الذين يشدون من أزره عندما يبلغ من الكبر عتيًا .. وبعد تفكير منه استغرق بعض الوقت هداه قلبه أن يقترن بـ « سلمى » ابنة شيخ قرية الشندويلى لما عُرف عنها من دماثة الخُلُق ، ورقة المشاعر ، وجمال وجهها الذى إذا نظر إليه كزوج سرته رؤياه .. وما هى إلا أيام قليلة وانتقلت سلمى من بيت أبيها إلى بيت مسعود فى أجمل وأبهى حفل زفاف شهدته قرية الشندويلى ، ومازال حديثه حتى الآن يملأ الأذهان ...

لم ينكر مسعود لحظةً أنه منذ أن اقترن بسلمى تبدل حاله من العبوس إلى الحبور ، من الوحدة إلى الأُلفة التى حُرم منها حقبة من الزمان ، حتى صار لحديثها فى نفسه وقلبه عذوبة خاصة تشابه إلى حدٍ كبير تغريد الطيور فى الصباح والمساء ، فلما مرت الأيام والشهور أضحت عيناه لا ترى غيرها ، وقلبه لا يتشوق إلا إلى الجلوس بجوارها .. ولسانه لا يفتأ يدعو الله أن يهبه من سلمى بالذكور الذين يحملون اسمه ، ويؤول إليهم أملاكه إرثًا بعد أن آلت إليه لما رحل عنه والديه ...

ذات يومٍ من أيام الشتاء القارص امتلأ منزل مسعود عبد الباسط ، سيد القرية بلا منازع عن بكرة أبيه بالنساء والرجال الذين أتوا من كل أنحاء القرية ليهنئوا ويباركوا هذا الكريم الجواد لما تطايرت إلى آذانهم أن سلمى فى انتظار مولودها الأول فى هذا اليوم .. بعد قليل ولجت المنزل « أم محسوب » القابلة ، فلما رآها كل الحاضرون أفسحوا لها الطريق ، فسارت هى بخطى ثابتة فى زهوٍ وخيلاءٍ وهى تُمنى نفسها أن تكون أول المبشرين لمسعود بأن ربه قد وهب له غلامًا ذكيًا ، علامات النجابة والنبوغ تبدوان عليه وهو مازال فى المهد ، آنئذ يغرف مسعود من فضل الله فيعطيها ، وقتئذ تعيش فى سعة وبحبوحة هى وبنيها ما قدر الله لهم ...

لم يدر مسعود كم مر من الوقت وهو بين الانتظار والترقب ، والقلق الذى بدا واضحًا على وجهه وهو ينظر إلى حجرة سلمى التى ما زالت مرتجة ، وهو لا يعلم ماذا يدور بين جدرانها .. لم يطل المقام به كثيرًا وهو على هذا الحال ، فسُرعان ما خرجت أم محسوب من حجرة سلمى وهى تقدم قدمًا وتؤخر الأخرى ، فلما هرع مسعود إليها ووقف قبالتها وسألها فى لهفةٍ : أرزق بالولد أم بالبنت .. لم تأت الإجابة من القابلة بسرعةٍ كما كان يتوقع الرجل ، فإذا به يعود القهقرى بضعة خطوات وقد أصابه الذهول وإذا به يتسمر فى مكانه ، وهو يشعر بأن الأرض تُميدُ من تحت قدميه لما قالت له أم محسوب بصوتٍ تتموج فى مقاطعه معانى اليأس والقنوط : « لقد وهب الله لك بُنية سبحان من صور » ...

سمع الحاضرون صرخة الحيـاة الأولى تملأ أرجاء منزل مسعـود ، فهبوا من جلستهم وأقبلوا على الرجل يهنئونه بقدوم مولودته الأولى ، ووجوههم تعلوهـا الفرحة والسعـادة .. أما مسعود فأنت إن رأيتـه فى ذلك الوقت ، وأمعنت النظر إليـه لوجدتـه ضعيف الجسد ، مكمـد اللون ، تتمايل على سحنته المنقبضـة أشباح الأحـزان ، وتنبعث من عينيـه الحزينتين نظرات موجعة تتكلم بالسكينة عن انسحاق قلبه وظلمة صدره ...

لما أصبح المنزل خواء من الحاضرين تـذكر مسعود سلمى ، فاتجه من فوره إلى حجرتها وهو يسحب قدماه ببطىء ، وكأنه الأسير المثقل بالهموم والجراح .. فلما وقف أمام زوجته وشاهد طفلتـه وهى تموء كالقطة ، لعلها تسبح ربها .. من يـدرى ؟ .. لبث صـامتًـا هنيهـة وقـد اصفـر وجهـه ، وتراخت ركبتـه ، كأن هيبة الموقف قـد سلبته القـوة .. نظرت سلمى إلى زوجها وهى تخفى ابتسامة حزينـة ، وسُرعـان ما قـالت لـه : مبروك علينا « خلود » ، وإن كنت تمنيت كثيرًا أن يكون كل أولادنا ذكورًا حتى يشدون من أزرك حينما تبلغ المشيب ، وحتى لا تعيش وحيـدًا كما عشت وحيـدًا مع والـديك ؛ ولكن هكـذا الحيـاة يأتى الليل ثم يعقبـه النهـار ، ويأتى الصقيع ثم يعقبه الحرور ...

أثلجت[1] كلمات سلمى قلب مسعود ، فانفرجـت أساريره ، فإذا به يتمايل فَيُقبل زوجتـه ومن بعدهـا صغيرته ثم قـال لها : الحق ما نطق بـه

(1) أثلجت : طمأنت .

لسانك الآن يا سلمى ، فلا ندع الحزن يتطرق لقلبينا وللنظر للغد فربما يحمل إلينا خبرًا سارًا .. من يدرى ؟ ...

تعاقبت الأيام والشهور ومسعود لا يفتأ يحلم بالولد الذى يحمل اسمه ، ويحول ما فى قلبه من حزنٍ وهم إلى غبطةٍ وسرور .. وجاء موعد صرخة الحياة الثانية ، أو بالأحرى « وضع المولود الثانى » فضل مسعود ألا يجلس فى هذا اليوم بالمنزل ؛ بل يجلس أسفل شجرة الجميز التى تقع على مشارف أرضه حتى تأتى إليه هذه المرة أم محسوب فتعلمه بالخبر السعيد الذى يتشوق لسماعه أكثر من أى يوم مضى ...

أخذ مسعود ينظر فى الفضاء الرحيب من حوله بعيون زائغة مترقبة وكأنه جندى الحراسة المتيقظ للدروب والمسالك فيما حوله ، وما هو بجندى حراسة ولكنه المرتقب قدوم أم محسوب وهى تزف إليه الخبر السعيد .. وبينما مسعود على هذا الحال رأى شبح القابلة قادمًا إليه من بعيد ، فهب من مكانه وهرع لمقابلتها والبشاشة تعلو وجهه .. فلما اقترب منها ووجد الحزن مرسُومًا على وجهها ، لم ينطق ببنت شفة بل فغر فاه من الدهشة .. لم يطل المقام كثيرًا على هذا الحال فسُرعان ما قالت القابلة : مبروك يا سيدى رزقك الله هذه المرة بأنثى تبارك الخلاق فيما خلق ...

انفجر مسعود غاضبًا فى وجه القابلة وكأنه الرعد الغضوب الذى يعقبه هطول المطر ، أو لعله البركان الثائر فقال لها فى حدةٍ : أُغربى عن وجهى أيتها العجوز الشمطاء ، أنت لست أم محسوب ؛ بل أنت « أم مشئوم » .. لما سمعت المرأة هذه الكلمات أطلقت لقدميها العنان وهى

تسابق الريح ، حتى ترى التراب والغبار قد خيم عليها فغابت عن أعين الناظرين ...

رجع مسعود مرة أخرى ليجلس أسفل شجرة الجميز وهو غاضبًا ، وفى أثناء سيره أخذ يثرثر بالكلام الذى يقطعه الغصص فقال وهو يقلب كفيه : « كان زواج ، وكان شقاء ، وكانت مأساة ملؤها التفجع والتوجع .. توقف مسعود عن حديثه مع نفسه برهةٍ ثم قال مرة أخرى : يا لحظك العاثر يا مسعود ، اليوم سوف يشيرون إليك أهل قرية الشندويلى ويقولون : هذا هو أبو البنات ، يا ليتك يا مسعود كنت نسيًا منسيًا قبل هذا اليوم ، فبطن الأرض أولى بك من ظهرها .

فى المساء عاد مسعود إلى المنزل فوجد سلمى فى انتظاره ، قلقة لا تدرى ماذا حدث لزوجها الحبيب .. فلما وقعت عيناه فى عينيها ، كبرت عيناه واتسعت من الغيظ ، وجمدت أجفانه ، وحدق دقيقة كأنه رأى أمامه عفريتًا قد انبثق من العدم وجاء ليميته ثم قال لسلمى : لقد مات قلبى فى داخلى ، والتهبت دموعى فى عينى .. صمت مسعود لحظات لعله يلتقط أنفاسه ثم عاود حديثه فقال : كل نساء القرية تلدن الذكور إلا أنت فتلدين الإناث ...

نظرت سلمى إلى زوجها الثائر وقد باحت أجفانها بسرائر نفسها ثم قالت بهدوءٍ سحرى : « إنه الله يا مسعود الذى يهب الذكور والإناث ، ويجعل هذا عقيمًا ، ويجعل هذه ولودًا ، ولا دخل لنا بذلك ، والآن فلتستغفر ربك ، وإياك أن تعود لمثل هذا الهذيان مرة أخرى » ...

هدأت ثـائرة مسعود قليلاً ، وسُرعـان ما أخـذ يُحدث سلمى بصوتٍ خفيض ، ووجه تعلوه الكآبـة فقال لها : تحدثت مع نفسى كثيرًا أن أتزوج بأخرى لتلد لى الذكور ؛ ولكنى دائمًا أتـراجع عن مثل هذا التفكير عندما أتذكر حُبَكِ الذى غمر قلبى ولا يريد أن يبارحه لقلب أخرى ...

لا يخفى على أحـد أن سلمى تـوجسـت خيفـةً فى بـادىء الأمـر من كلمات زوجها ، وتغيرت مـلامحها وجمدت عينـاها كأنها رأت شبح الموت منتصبًا أمامها ، ثم شهقت وتململت متوجعة كعصفور رماه الصياد فهبط من فـوره على الأرض مرتجعًـا بألامـه .. ولكنها لما سمعت كلمات زوجهـا الأخيرة فـرحت وقالت لـه : إن نفسك التى تسمع همس الأزهار وأغـانى السكينــة ، تستطيع أن تسمـع صراخ روحى وضجيج قلبـى .. سكتت سلمى قليـلاً ثم قالت مـرة أخرى : لقد نظـرت إليك فما وقع بصري على أجمل منك جمالاً وخُلقًا ، فـإذا حولت الآن نظرى عنك فـلأننى لا أُحب أن أرى الـدموع تراود أجفـانك ، ولا أحب أن أرى الحزن يعلـو وجهك الصبـوح ، وهذا الـذى تسمعِـه منى الآن ليس بحديـث لسانى بل هـو شعورى الـذى يجتاح قلبى وكيانى هو الـذى يحدثك الآن .. قبّل مسعود زوجتـه بعدمـا أخـذها وضمهـا بحنـانٍ بين ذراعيـه ، وسار الاثنـان إلى مخدعهما وهما يترنحان كـالمسكوران ، ومـا هما بالمسكـوران ولكنه الحبـور والسرور الذى قوامه المودة والرحمة التى تجمع بين الزوجين ...

واليوم وقد مرت الأعوام المظلمة طـامسة بأقدامها رسوم تلك الأيام ، تُـرى هل أسلم مسعود أمـره لله ، أم مازال يفكـر فى ولدٍ يسعـد برؤيـاه ، ويرثه بعد مماته ؟ ...

ذات يـوم حـرور جـاء « المخـاض » لسلمى فأخـذت تتلـوى وتتألم وتستغيث بزوجها الذى قام إليها وأخذ يربت على كتفها فى حنانٍ ثم قال لها : هـدئى يا سلمى من روعـك ، فسوف أخـرج الآن فى عجلٍ ، وأرسل لك هذه العجـوز الشمطاء المدعـوة بأم محسوب ، فـلا تفزعى ولا تحزنى لعل الشمس تشرق فى بيتنا هذه المرة بعد طول أفول ...

لما علمت القابلة العجـوز بأمر سلمى جاءت على عجلٍ ، وهى تُمنى نفسها أن تظفر يداها هذه المرة بالأصفـر الرنان .. أما مسعود فذهب إلى بستانه وفى ظل شجرة وراقة جلس ينتظر ...

أخـذ النـوم يـداعب عينى مسعـود ، وهـو يقـاومـه وكأنـه والنـوم يتصارعـان ؛ ولكن سُرعان ما غلبه النـوم فنام نومًـا له غطيط (*) فى ظـل شجرة وارقة حتى أصبح لا يدرى من أمر نفسه شيئًا ...

وبينما مسعود نـائمًا شاهد فيما يـراه النائم ، وكأن شجـرة الجميز التى يحبهـا ويعشقهـا كما يحب ويعشق سلمـى تتـدلى منهـا الثمار الكثيرة ، وسُرعـان ما تبـدلت إحدى الثمار وأصبحت ولـدًا جميلاً ينظـر إليه وهـو فاتحًا ذراعيه ، منفـرج الأسارير وكأنه القمر يوم اكتمالـه .. حاول مسعود أن يهب من رقـدته ليقطف الثمـرة ؛ ولكنه لمـا حـاول النهـوض ، وجـد أمامه القـابلة أم محسوب تقف وهى تحمل لفافة بين ذراعيهـا وتقول له : خـذ يا سيـدى وسم باسم الله الأعظم ، فلما سألها مـاذا يأخذ ؟ قـالت : هذه بنيتك الثالثة التى وهبها الله لك اليوم .. فلما تنحى ببصره عنها وراح

(*) الغطيط : هو صوت النائم (الشخير) .

ينظـر إلى الثمرة فلم يجدهـا ، جن جنونـه ، وإذا به ينظـر مرة أخـرى إلى القابلة التى تقف أمامه فلم يجدها هى الأخرى ، فطار ثوابه ، وأخذ يحدق فى الفضاء من حوله فلم يجد أثرًا لهما ...

مازال مسعـود نائمًا ، وصـدره يعلو ويهبط من الغيظ ، وهـو لا يدرى ماذا يفعل .. وإذا بصوت ضميره يتحرك بداخله ويقول له : ماذا دهـاك يا عبد الله ؟ وأنت الـرجل الذى جعلتَه الثروة فاضلاً ، والفضيلـة مثريًا ؟ ألا تعلم أن الله أوصى بالنسـاء خيرًا من فوق سبع سموات طبـاقًا ، ففِيَم حزنك هذا لما وهب الله لك الإنـاث ، أنسيت أنك العبد الضعيف الذى يعيش على أرض الخالق وتحت سمائه ، فلماذا هـــذا الجحـــود بأنعم الله المنهمرة ؟ ...

قـال مسعـود معقبًـا فى غصـصٍ (*) عـلى صـوت ضمـــيره : ولكن الذكـور تجعل للحياة معنًا شـاملاً يتسامـى فوق كل المقاديـر والمقاييس البشريـة ، وتقيم للإنسـان وزنًـا يضيـق بـه الزمــان والمكان .. فهقـه صوت ضمير مسعود بصـوتٍ عالٍ وقال له ساخـرًا : لعمرى ما سمعت إنسـانًـا عــاقلاً يتحـدث بما تتحـدث أنت بـه الآن وهـو يعلم أن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وإذا بُشرَ أحدهـم بالأنثى ظل وجهُـه مسودًا وهو كظيـم ، يتوارى من القــوم من سـوءِ ما بُشر به ، أيمسكُه على هـونٍ أم يدسه فى التُّراب ، ألا ساءَ ما يحكمون ﴾ . (سورة النحل : الآية : ٥٨ ، ٥٩)

(*) فى غصصٍ : أى فى حزنٍ شديد .

لمـا اختفى صـوت ضمير مسعـود ، سمـع صرخـةً هى أشبـه بتلك الصرخة التى سمعهـا فى منزله عندما وضعت سلمـى مولودتها الأولى .. رق مسعود لهذا الصوت ، وهو لا يدرى لماذا ، فإذا به يأخذ فى السير وهو يتتبع مصدر الصوت .. فلما وصل إلى مصدر الصوت وجد عجبًا ، وجد رجل ينتحب بشدةٍ وكأن عينيه تستقطر الدماء وليست العبرات ، ويقف بجواره أبنائه الثـلاثة الصغار وهم يبكون لبكـاء أبيهم ، وهم لا يعلمون ماذا حدث ...

فلما دنا مسعود من الـرجل وسأله فِيَم بكاءك ؟ أشار إليـه بسبابته أن ينظر إلى الفـراش ، فـإذا بمسعـود ينظر إلى الفـراش والدهشـة لم تغـادر محياه ، ويا لهول ما رأى فى تلك الساعة ، شاهد ، وياليته ما شاهد : امرأة فى عمر الـزهور أسلمت الروح فى هدوء ، وبجـوارها طفلاً وليد السـاعة يصرخ للحياة ، لعله ينوح مع الغصون على أمه التى كانت بالأمس نغمة شجية بين شفتى الحيـاة ، فأصبحت اليوم سرًا صامتًـا فى صدر الأرض ؛ أو لعله يعلن بصرخته هذه أنه فقـد أمه مع الصرخة الأولى للحياة ، فهل من معتبرٍ ، هل من متذكـرٍ .. ترك مسعود الـرجل يواجه مصيبتـه بنفسه وولى الإدبار وهو ينتحب بشدةٍ نحيبًا جارحًا خارج من صميم كبده وهو يقول محدثـًا نفسه : عجبًـا لهذه الحياة التى يمـوت فيها الإنسـان ليحيا ، ويحيـا غيره ليمـوت ؛ ولكنهـا الحياة التـى أوجدنـا فيهـا الله ، لما أذن لنـا بالعيش على ظهرها ، فلله الحمد والشكر فى الأولى والآخرة ...

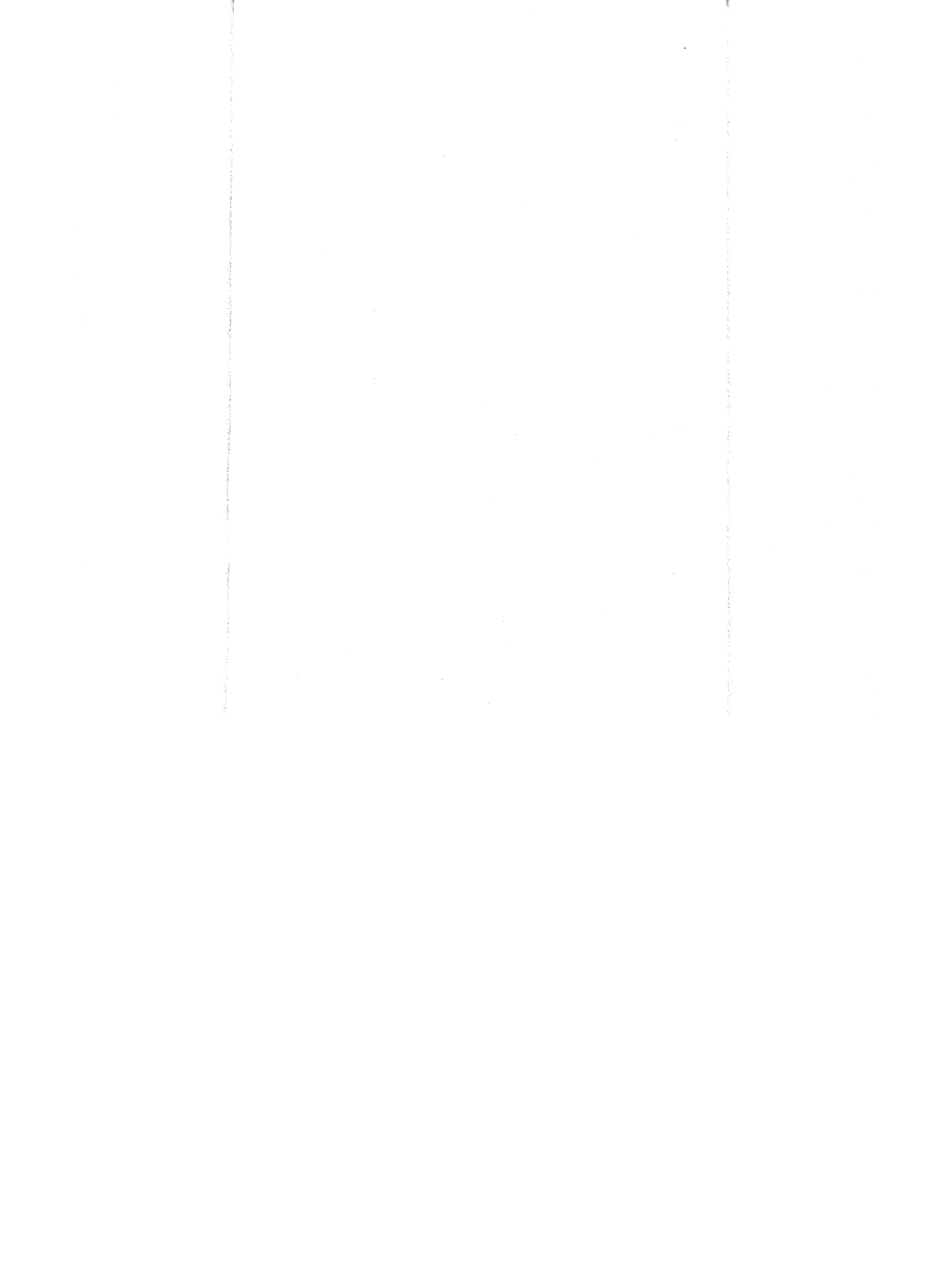
هب مسعود من نـومه ، وقـد شاهد فى رؤيـاه ما طمئن قلبـه ، وجعله قرير العين ، فلما قام واقفًا أخذ يُقلب كفيه ، ولسانه الذاكر لا يتوقف عن حمد الله ، وسُرعـان ما قـال محدثًا نفسـه بصوتٍ مسمـوع ، حقًا إن النـور الحقيقى هو ذاك الـذى ينبثق من داخل الإنسان غير النور الـذى تسكُبه الشمس على جميع الخلائق ...

عندمـا هَم مسعود بالعـودة إلى المنزل وجد أمـامه القابلـة أم محسوب فقال لها وهو يهش ويبش لها : ماذا وراءك يـا أم رجال ونساء القرية ؟ .. لما سمعت العجـوز هـذه الكلمات التى أثـلجت صـدرهـا تشجعت وقالت : لقد وهبك الله اليوم عـروسة هى أشبه لك من سيدتى سلمى .. تهلل مسعـود من الفرحـة وقـال : « الحمـد لله الـذى بيده ملكـوت كل شىء ، هو الـذى يهب لنا الذكـور والإنـاث ، وهـو الرزاق ذو القـوة المتـين » ...

سأل مسعود أم محسوب عن صحة سيـدتها سلمى ، فلما قالت له أنها بخيرٍ فـرح وقـال لها : هلمى معـى لنـذهب إلى سلمـى ، فكم وحشنى رؤياها ، وكم أنـا سعيد بوجودها بجوارى ، وسـار مسعود عائدًا أدراجه إلى منزله وبجواره القابلة أم محسوب تسير ، وهو يردد قول الله تعالى :

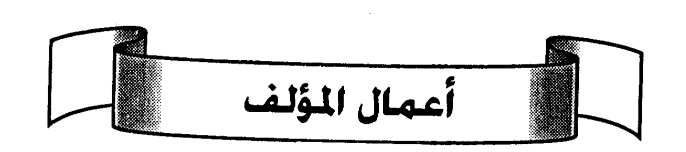
﴿ للهِ مُلْك السمـواتِ والأرضِ يخلقُ ما يشـاءُ ، يهب لمن يشـاءُ إناثـًا ويهب لمن يشاءُ الذكورَ ، أو يزوجهم ذكـرانًا وإناثًا ويجعل من يشاء عقيمًا إنه عليمٌ قدير ﴾ . (سورة الشورى : الآية ٤٩ ، ٥٠)







المحتويات



* سلسلة « *أحلام العصافير* » للأطفال ١٧ قصة .. « دار الفكر العربى »
* سلسلة « *أحلام الفتيان* » للفتيان ١٠ قصص .. « دار الفكر العربى »
* سلسلة « *فتيان فى الإسلام* » للفتيان ١٥ قصة .. « دار الأمين للنشر والتوزيع »
* سلسلة « *أجداد وأحفاد* » للفتيان ١٤ قصة .. « دار الأمين للنشر والتوزيع »
* سلسلة « *حكم ومواقف* » للأطفال ٦ قصص .. « مكتبة النهضة المصرية »
* رواية بعنوان « *رحلة فى عالم النساء* »
* « *قاطرة الصحراء بين الماضى والحاضر* » تحت الطبع
  .. كتاب عن الهجن العربية ..
* « *رفيدة أول ممرضة ومعلمة فى الإسلام* » تحت الطبع
  كما أعدها الكاتب سيناريو سهرة
  تليفزيونية نشاهدها قريباً بإذن الله ..
* « *حفنى ناصف بحر العلم الزاخر* » تحت الطبع
* « *قراقوش فى الميزان* » تحت الطبع

- سبق للكاتب الحصول على جائزة السيدة/ **سوزان مبارك** عام ١٩٩٢ عن قصة بعنوان : « ***صحوة أبطال وانتفاضة شعب*** » وهى قصة مستمدة من التراث .


مطابع
ت : ٩٣٢٧٠٦